صاحب المجلة
ومديرها ورئيس
تحريرها المسئول
أحمد حسن الزيات

الإدارة
[illegible] شارع [illegible]
[illegible]
تليفون ٩٠٠ - ٤٧٩٠٢

الرواية

مجلة أسبوعية للقصص والتاريخ

تصدر مؤقتاً في أول كل شهر وفي نصفه

سكرتير التحرير
محمود الخفيف

بدل الاشتراك
ص
١٢٠ في مصر والسودان
١٥٠ في الممالك الأخرى
٥ ثمن العدد

الإعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

العدد الثاني ١٢ ربيع الآخر سنة ١٣٧٢ — أول يناير سنة ١٩٥٣ السنة الرابعة

فهرس العـــدد

صفحة			
٣	رجلان وامرأة	أقصوصة مصرية	للأستاذ أحمد حسن الزيات ... ...
١٠	صدفة !	للكاتبة الفرنسية آن بابو	بقلم الأستاذ محمود الخفيف ... ...
٢٥	تصفية حساب	أقصوصة مصرية	للأستاذ صبري عطا الله ... ...
٤٤	الربية	للكاتب النمسوى ستيفان زفايج	بقلم الأستاذ على أدهم ... ...
٤٨	الطبيب الشاب	قصة بوليسية	للكاتب الانجليزى [illegible] ...
٦٧	[illegible]	للكاتب [illegible]	بقلم الأستاذ فوزى شاهين ... ...
[illegible]	فكر في [illegible]		

رجلان وامرأة

للأستاذ أحمد حسن الزيات

— ١ —

أما أحد الرجلين فأديب معلم . بلغ الثلاثين أو أربى عليها بقليل ؛ فهو فى كمال بنيته وعقله . كان على شىء من وسامة الوجه وجمال الهيئة ، وعلى أشياء من سهولة الخلق ولطف الروح ، وبراعة الظرف ، وعذوبة المنطق . ولعل أظهر ما يميزه حياؤه المفرط وصمته الطويل ؛ فما أكثر ما يجيب عن أكثر ما يسمع ابتسامة حيية . فإذا نطق رمى بالكلمة أو الكلمتين فى خفوت وحذر ، فتذهبان فى ضجة الحديث كما تذهب النسمة اللينة فى الدغل الشاجن ، أو القطرة العذبة فى الموج الصاخب ، فيزداد امتعاضا وانقباضا ووحشة

ومن العجيب أن حياءه كان يغرى به النساء ؛ لأنه كان حياء من نوع غريب ، لا ينم عن ذلة أو ضعة أو جبن ؛ وإنما ينم عن حشمة فيها عزة ، وعن رقة فيها ترفع ، وعن طيبة فيها شجاعة . فكان النساء يفهمن هذا الحياء على غير معناه : يحسبنه استخفافا وراءه كبر ، أو انصرافا تحته سر . والمرأة يهين دلالها الكبر فتريد قهره ، ويثير فضولها السر فتحاول كشفه . لذلك كانت يفاعته وشبيبته موجات من حبهن أخرى ، تتعاقب دائبة على قلبه البرىء ، فتفنى فناء الصوت فى قفرة ، أو ترتد ارتداد السهم عن صخرة . فإذا انبسطت الألفة من انقباضه ، وأزالت الصداقة من احتشامه ، وجدته محدثا عذب الحديث ، مفاكها حلو الفكاهة ، يصل ما بين قلبه وقلب سامعه بكلام رقيق الحواشى ، وصوت رخيم النغم . وهو إلى ذلك شاعر يحس الحياة بقوة ، فنان يفهم الجمال بعمق ، إنسان يأخذ الصداقة بإخلاص . ومن أجل ذلك كثرت خلواته ، لأنه بعدلا عن حبيبه لا يجد اللذة إلا فى التأمل ، ولا السعادة إلا فى العمل ؛ ومن أجل ذلك أيضا قلت صداقاته ، لأنه لا يحب إلا عن ميل ، ولا يصادق إلا عن حب

* * *

وأما الآخر فطبيب ناشئ لا يزال فى ربيعه الخامس والعشرين . جميل الصورة ، أزهر اللون ، ممشوق القوام . يروعك منه أول ما يروعك شعره الفاحم المتموج ، وثغره الباسم النضيد ، ووجهه السوى القسيم ،

وسمته الهادئ الوديع؛ ولكنه لا يزيد على تمثال أتقن المثال صنعه وسوى خلقه. ليس فيه روح يقبض الحياة في جسمه، ولا قلب يدفق الشعور في دمه، ولا لسان يبث البيان في حديثه. إنما يتحرك وكأنه لا يحس، وينفعل وكأنه لا يدرك، ويتكلم وكأنه لا يفكر.

ومن وجوه الشبه بينه وبين التمثال أيضا فقد الإرادة: فأنت تحمله فيحتمل، وتنقله فينتقل، وتقوده فينقاد، لا يمتنع ولا يعترض ولا يتحرك. وهو [illegible] بالقمر الذي يمده عن [illegible] الضعيف [illegible] فلا هو [illegible] الظل ولا [illegible] فلا هو [illegible] ذلك كله [illegible] فلا [illegible] ولا [illegible] طموح ولا [illegible] ولا [illegible] [illegible]

[illegible]

أدركت [illegible] على التجارة [illegible] لا بأس به.

[illegible] حمله الله في [illegible]

فلا يقيد البصر ولا يحرك القلب. ومع ذلك تستطيع أن تقول إنها فتاة: فتاة ببشرتها الخمرية الرائقة؛ فتاة بعينيها الحوراوين اللتين خلقتا لتسحرا لا لتنظرا؛ فتاة بخديها الأسيلين اللذين يقف عليهما البصر الحائر ساعة لا يرتد ولا يطرف؛ فتاة بشفتيها الرقيقتين المفترجتين دائما عن ثغر قل أن تجد له مثيلا حتى فيما يتخيل الشاعر ويصور المصور؛ فتاة بحديثها الصادر عن قلبها النابض بالعواطف، ووجدانها الجائش بالأحاسيس، وذهنها الزاخر بالمعاني؛ فتاة بدلالها الطاغي الذي يمثل في حديثها السيال فيتشكل في فيها كل شكل، ويتلون في صوتها كل لون. وهي مستعدة قوية من الشهوات والنبوات والميول، لا تحتملها أعصابها ولا تسعها قواها؛ فهي دائما تطلب، وهي أبدا لا تكتفي. هواها أن تحب، ولذتها أن تعاشر، وسعادتها أن تتذوق، وديدنها أن تغير. أجمل ما في حياتها موعد مضروب، وموعود منتظر، وساعة أو ساعتان في مطعم أو ملهى أو حديقة أو بهو جميل. تعيش يوما بيوم؛ فلا تذكر الأمس ولا تفكر في الغد. ويومها كله زينة تتخذ، وجولة في محلات الأزياء تجال، وصديقة تستقبل، وزيارة ترد، وحفلة تقام، وسهرة تقضى؛ وفيما بين ذلك عود تحتضنه،

وغناء توقعه عليه

— ٢ —

تعارف الرجلان على شاطئ (جليم) من رمل الإسكندرية عام ١٩٢٣ . عرف أحدهما بالآخر صديق مشترك . ولم يكد الصديقان أن يتعارفا حتى تآلفا . وجد كل واحد منهما في أخيه ما يرضيه : هنا تمثال من الحسن يلذ الفنان أن يراه ؛ وهناك شدو من شعر القلب يلذ الإنسان أن يسمعه . وبين الصديقين فضلا عن ذلك مشابه في رقة القلب وحياء الطبع وسلامة النية والترايل من الناس . فكانا يجدان في لقائهما وحديثهما من المتاع والأنس ما لا يجدانه في ملهى من ملاهي المصيف ، ولا في مجلس من مجالس السمر . لذلك جددا اللقاء ، وأطالا الاجتماع حتى توثقت بينهما الصلة وتمكنت الألفة ، فصار كل منهما للآخر حاجة نفسه ومصدر أنسه . ثم انتهى المصيف فعاد الصديقان إلى القاهرة في يومين متعاقبين كل واحد مع أسرته ، وعاد لقاؤهما في مجامع القاهرة ، على النحو الذي كان في ملاهي الإسكندرية .

كان أمين الصديق الأصغر يزور كل يوم حافظا الصديق الأكبر ، فيقضيان الأماسي معا في سينما أو في قهوة . وكان أمين كلما أقبل إلى صديقه كل مساء يقول : جئت من بيت عمي ، وتغديت على مائدة عمي ، وأخذت بيدي من صندوق عمي .

فسأله حافظ ذات مرة : أتسكن مع عمك ، فإني لا أراك تتحدث إلا عن بيته ، ولا تتكلم إلا من تليفونه ؟

فأجابه : إني أسكن مع أبي ، ولكني أعيش مع عمي .

فقال حافظ : ما عهدت أحدا يفضل عمه على أبيه ، ولا زوجة عمه على أمه .

فقال وهو يضحك : لا أفضل عميّ على أبويّ ، وإنما أفضل خطوبتي عليهم جميعا ، وهي ابنة عمي . وقد أحببتها حبا ملأ شغاف قلبي ، وشغلني عن كل الناس إلا عنك . فأنا أقضي معها وقت فراغي ولا أكاد أتركها إلا إليك . وهي تعرفك بالسماع ، وكثيرا ما تحدثنا عنك . وأخوها تلميذ لك فلا يبرح لاهجا بذكرك . وأقرب الأيام هذا اليوم ، فقد سألتني أن أستزيرك . ويسرني أن تنعم لها بما طلبت .

فقال له : ولم لا تؤجل زيارتي إياها إلى أن تكون في بيت الزوجية ؟

فقال أمين : أوه ! إن بيننا وبين الزفاف سنة طويلة . ويصعب على أن أقسم وقتي بينها وبينك ؛ ولكنك إذا عرفتها وعرفتك ، ضمنت ألا أفترق عنها ولا عنك .

* * *

وفي عصر يوم من أيام الخميس ركب الصديقان الترام إلى منزل العم . وكان الشارع الذي نزلا في بعض محطاته شارع

الجيزة ، فساروا فيه . وكانت أواخر الصيف قد اتصلت بأوائل الخريف فى جو سبتمبر ، فكسرت من حره ، وعدلت من نسيمه ؛ كالصهباء تشعشعها بالماء فتكون منهما النشوة ولا يكون فيهما الخمار . وكان شجر الدردار المنضد على جانب الطريق لا يزال ممسكا بأوراقه العريضة ، فلم تسقطها بعد رياح أكتوبر . وكان النيل بوجهه المتورد يتراءى من بين الشجر ومن خلال القصور جميلا جليلا ، فيغرى السائر بالوقوف ليتملى ويتأمل . فقال الأديب للطبيب : مل بنا إلى الشاطئ نستمتع قليلا بجمال النهر ؛ فإنى — كسائر القاهريين — أكاد أنسى أن النيل يجرى فى القاهرة ؛ لأننا لا نراه إلا عابرين مسرعين على جسوره ، أو سائرين ذاهلين على شواطئه .

فقال الطبيب للأديب وكأنه لا يشعر بما سمع ولا يفكر فيما قال : هذا هو بيت عمى . وها هى ذى (عقيلة) واقفة فى الشرفة تنظر وتنتظر . فاطلع الأديب فرأى فتاة قصداً فى النساء ، لا هى قصيرة ولا طويلة ، ولا هى سمينة ولا نحيلة . ترتدى حلة من قطعتين : عليا حمراء فى لون القرمز ، وسفلى بيضاء فى لون الزنبق . وبجانبها كلب صغير أبيض يطل من فرجة بين قضبان الدرابزين . فلما رأتهما ابتسمت وانكفأت إلى الداخل لتلقاهما لدى الباب

تعارفا فى الصالة ، ثم تقدمتهما إلى الصالون . وأقبل الخادم بأقداح الشاى وأطباق الحلوى . وبدأ الحديث ؛ ولكنهم لم يتجاذبوا أطرافه ، لأن الحديث لم يكن له إلا طرف واحد أمسكت به عقيلة طوال الوقت . وظل الزائران يستمعان ويبتسمان ؛ لأن حافظا عقل لسانه الحياء ؛ ولأن أمينا قطع كلامه الهوى . ثم هم الصديقان بالانصراف فودعتهما عقيلة لدى المصعد وهى تقول لحافظ بلهجة الإصرار والتوكيد : أرجو أن تزورنا فى أى يوم ومن غير دعوة . ولكن حافظا لم يستطع أن يحقق هذا الرجاء الأول لأنه سافر إلى باريس فى رحلة تستغرق العام كله

— ٣ —

تتابعت الرسائل من الأديب الكاتب إلى الطبيب الخاطب تحمل أجمل الأحاديث وأرقها عن مفاتن باريس ومتاحفها وحدائقها ومسارحها وملاهيها وعن كل جميل فيها . وكانت الأجوبة عن هذه الرسائل تتوالى كذلك حاملة صدى تلك الأحاديث وأثرها فى نفس أمين ، ورجاءه إلى صديقه أن يكثر منها ويطيل فيها . وكان حافظ قد فطن إلى أن الروح التى تنبث فى هذه الرسائل ليست روح أمين . روح من ؟ لا يدرى ! وإنما يعتقد على أى حال أن هنالك (سيرانو) بجانب (كرستيان) . فاحتفل لرسائله أشد

الاحتفال ، وجعلها أشبه باليوميات يسجل فيها مشاهد اليوم وخواطر الساعة ، وما يتعاقب على نفسه الشاعرة من رضا وسخط ، وانساط وانقباض ، وإعجاب وإنكار ، وميل ونفور . ولبى رغبة صديقه فأسهب بعض الإسهاب فى وصف من لاق من أوانس (البلفار) وغوانى (مونمارتر)

وألقى إليه البريد ذات يوم رسائل مصر فقض أول ما قض غلاف أمين لأنه يعرفه بخطه ، فإذا بداخله رسالتان : رسالة طويلة بإمضاء أمين ، ورسالة صغيرة بإمضاء عقيلة . فتناول رسالة الآنسة وأخذ يقلب فيها النظر : فى إمضائها المائل ، وخطها المتسق ، وورقها الفاخر ، وشكلها الأنيق ، ولونها الورد . ثم عاد يقرأ :

« عزيزى صديق ابن عمى !

ولى العذر إذا لم أقل صديقى ، فإنك أغفلت ذكرى فى رسائلك التى أقرأها كلمة كلمة ، وأحتفظ بها رسالة رسالة . ولا أدعى أن من حقى عليك أن تسلم على ، فإن زيارة واحدة لا تشيّ بين الزائر والمزور صداقة ؛ ولكنى حسبت أن صداقتك لأمين هى من السعة والعمق بحيث تشمل مخطوبته على الأقل . على أنى أعرفك منذ زمن طويل مما قرأت لك وسمعت عنك . وهب أن المعرفة بيننا كانت قديمة وثيقة ثم نسيت أن تحيينا على البعد ، فإننا نعذرك كل العذر ، لأن من فى باريس لا يذكر من فى القاهرة ، ومن يصبح بين غوانى (مونبرناس) ويمسى بين حسان (سان جرمان) ، لا يجد وقتا للتفكير فى ساكنى شارع الجيزة أو قاطنى حى النيرة . أرجو ألا تحمل كلامى على محمل العتاب ، فليس لى أن أعتب عليك . احمله إن شئت على محمل الاستجداء ، فإنى أجد فى قراءة رسائلك لذة لا أجدها فى متعة أخرى ! فإذا كتبت إلى كما تكتب إلى أمين ، تصبح الرسالة رسالتين ، والسعادة سعادتين . وما أظنك تبخل على إنسان بلذة لا تؤلمك ، وبمنفعة لا تضرك »

ابنة عم صديقك

عقيلة

فلما فرغ حافظ من قراءة هذه الرسالة بدءاً وعوداً ، قرأ رسالة أمين فوجده يرجو ويلح فى الرجاء أن يكتب إلى عقيلة ولو على حساب الكتابة إليه ، ويفضل أن يحدثها عن مباهج النهار وملاهى الليل ، وعما يتصل بالمرأة الباريسية من معروف ومنكر : فلم يسع صديق الخطيبين إلا أن يلبى مبتغاهما فى الحدود التى يحدها حياؤه ويفرضها أدبه ؛ ولكنه كان يحرص كل الحرص على أن يدرج الرسالتين فى غلاف واحد .

لا أريد أن أعوق القارئ عن حوادث القصة برواية ما كتب إليها وما كتبت إليه ، فإن ذلك وإن لذ وأمتع

لا يضيف إلى الموضوع إلا مرامى تختبئ وراء السطور تكشف المذهن اللماح طرف النقاب عن وجه المستقبل .

فلنعد مع حافظ من باريس — بعد أن قضى حاجته منها — إلى الإسكندرية فى أواخر غشت ليجد فى استقباله على الميناء أمينا وعقيلة

وكان عم أمين أو أبو عقيلة يصطاف على عادته من كل عام فى شاطئ (جليم) فاقترحا على حافظ أن ينزل فى فندق (سمربلاس) ليكونوا جميعا فى حى واحد . ولم يريدا أن يتركاه لنفسه تلك الليلة ، فصحباه إلى غرفته ، وشاركاه فى عشائه ، ولازماه فى سهرته . وكان مدار الحديث فى هذه الأمسية ، وما تلاها من أمامى ، على ما رأى حافظ وما سمع فى مدينة النور من عجائب الحضارة وغرائب الناس . كان الخطيبان يريدان أن يسمعا ذلك من فمه بعد أن قرآه بقلمه . وكانت عقيلة تسأل وحافظ يجيب وأمين يسمع .

وكانت الرسائل التى تبادلها الأصدقاء الثلاثة فى ثمانية وأربعين أسبوعا قد أزالت من بينهم الكلفة ، وأطلعت كل واحد منهم على دخيلة الآخر ، فكانت عقيلة تطمئن إلى الصديق كما تطمئن إلى الخاطب ، فتنبسط فى الكلام وتتساهل فى الدعابة ، وتحول التيار الكهربى حيث تشاء برفع الكبس من هنا ووضعه هناك ، فترى أن أثره فى الخشب غير أثره فى المعدن ، وأن فعله فى نفس أمين غير فعله فى نفس حافظ ، فتقبل بنفسها وحسها على الأديب أكثر مما تقبل بوجهها وقولها على الطبيب . وكان أمين يجد فى تمكن الألفة بين خطيبه وصديقه رضا قلبه وغبطة نفسه ؛ لأنه يرى فى تودد عقيلة إلى حافظ إعجابا منها بصحة رأيه فى انتخابه للصديق ، وفى تحبب حافظ إلى عقيلة ثناء منه على حسن ذوقه فى اختياره للزوجة . ولم تكن ملاطفة حافظ لحبيبة صديقه عرضا من أعراض رغبة ناشئة ، ولا أثرا من آثار عاطفة حبيسة ؛ وإنما كان رجلا قريب عهد بالحياة الباريسية التى تجعل التلطف بالمرأة والتظرف لها أدبا مرعيا من آداب السلوك . وهو بطبعه رقيق الحاشية ، يلاين ولا يخاشن ، ويتبسم ولا يتجهم : أما عقيلة فكانت تنشد شيئا فوجدته فيه . كانت تريد أن تسمع من يقول لها : أنت جميلة ! وإن فيك ما ليس فى أترابك من عذوبة الروح وصفاء الحس وقوة الجاذبية . وكانت تحب أن ترى أثر قولها فى عين تنظر بإعجاب ، وشفة تفتر عن دهش ، ولسان يهتف فى خشوع . وكانت تود لو يكون بجانبها من إذا أعجبت بمنظر من مناظر الطبيعة ساهم فى هذا الإعجاب ؛ وإذا تحدثت فى موقف من مواقف السينما شارك فى هذا الحديث ، وإذا شعرت بعاطفة من عواطف القلب استجاب إلى هذا الشعور .

فلما قرأت لحافظ وهو في باريس ، وتحدثت إليه وهو في الإسكندرية ، وتقلبت معه على شواطئ (الرمل) ، استقرت نفسها بعد طموح بعيد ، وسكن طرفها بعد نظر طويل ، وقطعت نفسيهما عن أهلها وصواحبها ، واكتفت به ، يرتادان الشواطئ والحدائق طول النهار ، ويترددان إلى المسارح والملاهي أكثر الليل ، وأمين يرافقهما إلى كل مكان ، ويوافقهما على كل اقتراح ؛ فكان الثلاثة أشبه بالأقانيم المسيحية الثلاثة : متحدين في الروح ، متعددين في الجسد : فحافظ هو الأب ، وأمين هو الابن ، وعقيلة هي روح القدس !

— ٤ —

أقبل سبتمبر وهو الشهر الذي يعود فيه الموظفون من الإجازة ليستأنفوا كارهين العمل في الدواوين . ويعود فيه الطلاب والتلاميذ من العطلة ليستعدوا خائفين لامتحان الدور الثاني ، أو ليقدموا طلباتهم إلى الجامعات أو إلى المدارس . ويعود فيه أعيان الفلاحين من المصيف ليتأهبوا راجين لجمع القطن وضم الأرز وبذر البرسيم . فخلت أكثر الأكشاك ، وفترت حركة الشواطئ ، وخفت زحمة الكورنيش ، وهدأت حياة البحر ، فلم يبق على بلاجات الرمل إلا المترفون الذين لا تحفزهم ضرورات العمل إلى السفر ، وإلا السكندريون الذين يبدأون على عادتهم الاصطياف في هذا الشهر .

وعادت أسرة عقيلة مع العائدين ، فاستبدلت حالة بحالة ، وتحولت من حياة إلى حياة . عاد الأب إلى أعمال المكتب ، والأم إلى شئون البيت ، والأولاد إلى واجبات المدرسة ، وعقيلة إلى الإبرة والكتاب ، وإلى الزيارة والاستقبال ، وإلى الموسيقى والغناء . وسرعان ما اطمأن كل إلى عمله الأول ، واستقر على وضعه المألوف ، إلا عقيلة لم تجد في بيت الجيزة ما كانت تجده في [illegible] ، وما تلقى في شوارع فؤادها ما كانت تذوقه قديماً من حلاوة الأمس ، تمج في عينيها كل إنسان ، وتنفر في ذوقها كل شيء ، وتثقل على سمعها كل حديث ، وأدركت أن علة هذا التغير إنما هو فقدها الثالوث على الحال التي كانت عليها في الإسكندرية . ولكن كيف يتسنى لها في غير الصيف أن تمرح طول النهار ، وأن تلهو أكثر الليل ؟ هي تستطيع ذلك إلى حد ما مع أمين ، لأنه ابن عمها فهو أخوها في الحاضر ، ولأنه خطيبها فهو زوجها في المستقبل . ولكن الأمر بينها وبين حافظ جد مختلف : لا تصله بها صلة من قرابة ، ولا تصله بأبيها صلة من صداقة ، وصلته بأمين وإن كانت وثيقة لا ترفع الحجب حتى ترى خوالجه في كل ملهى ، ولا تدفع الحواجز حتى تذهب في صحبته إلى كل مكان . والولاية عليها لا [illegible]

لأبيها . والتقاليد الإسلامية لاتنفك متبعة في الأسر الوسطى . أما التفكير في أن تقنع بلقائه مرة أو مرتين أو ثلاثاً في الأسبوع فذلك ما لم يخطر ببالها ولم تتداعى إليه المعاني والظروف . لقد أصبح وجوده في حياتها جزءاً من وجودها هي في الحياة ، فلا تتصور أن تمضي من غيره ، ولا أن تهنأ بطيب العيش مع غيره . وإذن فلا سبيل إلا أن تدخل على أبيها وهو يتمزز فنجان الشاي مع أمها في ساعة صفو وتقول :

بابا ! إنك تعلم أن اللغة الفرنسية من ألزم العناصر لثقافة الفتاة المصرية ، وأن القدر الذي تعلمته منها في المدرسة لا يكفي للحديث في مجتمع راق ، ولا للقراءة في كتاب قيم . وأرى إذا سمحت أن أعود إلى تعلمها بعزم أقوى وعلى منهج أتم ؛ فإني تعرضت مراراً للخجل الشديد أمام صديقاتي المتخرجات في (الميردي ديو) حين يحادثنني بها فأتلعثم أو أخطئ أو أتوقف

وقال أبوها ، وكان قليلا ما يرد لها طلبا : لا بأس يا بنتي ! اسمعي ما تحبين .

وقالت أمها ، وكانت كثيراً ما تعكسها من بغيتها : إن المدموازيل هيلين التي كانت تعلمك الموسيقى تستطيع أن تعلمك الفرنسية فاطلبيها وكلميها

فقالت عقيلة وقد سرتها موافقة أبويها : عفواً ياماما ! إني أريد أن أتوسع في نحو هذه اللغة وصرفها ، وأتضلع من بيانها وأدبها ، والمدموازيل هيلين لا تعرف من الفرنسية إلا الحديث الدارج والكلام المألوف . وإن لابن عمي صديقاً توفر حظه من هذه اللغة ؛ وقد قال أمين حين حدثته في هذا الأمر إنه يتمنى أن يعطيني كل يوم درساً من غير تحديد وقت ولا تقدير أجر

قالت ذلك وهي لم تتحدث إلى أمين عنه ولم تعرف رأي حافظ فيه ؛ لأنها تعلم أن أميناً طوع غرضها في حب ، وأن حافظاً لا يتشدد على أمين فيما يريد . وكان رأيها في الصديقين صحيحاً . فابتدأت الدروس بعد يومين اثنين في المكتب المنعزل من بيت عقيلة ، وفي الساعة الخامسة من كل يوم

— ٥ —

بدأت الدروس طبيعية في الأسبوع الأول كما تكون بين معلم يحب أن يعلم ، وتلميذة تريد أن تتعلم ؛ لأن الأب كان يدخل عليهما فيبتسم ويتكلم ، والأخ كان يلم بهما فيسمع ويستفيد ، والخاطب كان يجلس إليهما فيشارك أو ينتظر . وخشيت عقيلة أن يستمر الأمر على هذه الحال ، فرغبت أن يكون الدرس في الصبح حين يكون الأب في ديوانه ، والأخ في مدرسته ، والخاطب في مكتبه ؛ فحققوا لها هذه الرغبة . وقد ساعد على تحقيقها أن المعلم كان لحسن الحظ أو لسوئه فارغاً من العمل

فى الساعات الثلاث الأولى من اليوم الدرسى أ كثر الأسبوع .

وفى السكون الشامل والخلوة الصحيحة مضت الدروس فتية جدية أول الأمر ؛ ثم ظهرت النسمة وبرح الخفاء فتحولت إلى حديث صرف أقله بالفرنسية وأكثره بالعربية ، يتشقق بعضه من بعض ، ويتناول أخبار الأسر ومغامرات الأوانس ورحلات المراثى ونزعات العصر ؛ فيحاول المعلم أن يحجز سيله الدافق بحمل التلميذة على أن تتحدث بالفرنسية ؛ ولكن الفرنسية لا تواتيها فتعود إلى العربية ، لأن هواها أن تتكلم لا أن تتعلم . وكانت تدس فى ثنايا الحديث بعض المعانى الخاصة فيتجاهلها المعلم ويصرفها بلباقته إلى المعانى العامة ؛ فتعود هى إليها وتلح عليها كما تلح النحلة الشرهة على رحيق الزهرة كلما نحيا أحد عنه .

وبرم المعلم بهذه الدروس التى يتلقاها ولا يلقيها ، فقرر فى نفسه أن يصارح التلميذة فى اليوم التالى بأنها تخسر الوقت ولا تكسب التعلم ، وأن من الخير إذا كان همها الحديث أن تكتفى بما يجرى منه بين زائريهم فى مساء كل خميس ويوم كل جمعة

وكان اليوم التالى يوم اثنين ، فلم يكد يحييها ويجلس حتى قالت له وهى تنظر بفتور ، وتبسم فى دلال : « اسمع يا أستاذى ! إن درس اليوم سآخذه فى

الطريق ؛ فإن لى عند الخياط فستانا أريد أن أجربه ، وعند المصور صورة أحب أن أراها ؛ ولا تريد أمى أن أخرج وحدى ، فما رأيك ؟ »

فقال لها الحافظ : « ومتى كان لأحد عندك رأى ؟ عسى أن الدرس على المكتب بخير منه فى الطريق ما دام الأمر لا يتعدى « الدردشة » وكانت قد ارتدت من قبل ثوب الخروج فنهضت ونهض على أثرها ، فذهبا إلى الخياط فى شارع قصر النيل ، ومرا على المصور فى شارع عبد العزيز ، ثم اقترحت عقيلة على حافظ أن يجلسا قليلا فى محل معين من محلات الحلوى تفضله على غيره لنظافته وهدوئه . فلما دخلاه انتبذت ناحية فى ركن خال من أركان المحل فجلسا فيه . ولو جلسا إلى أى مائدة من الموائد لما حرك السكون من حولها أحد ؛ لأن خلو الأمكنة العامة فى مثل هذه الساعة من النهار أمر مألوف : والخلوة فى هذا المكان على الأخص مضمونة فى كل وقت لازوائه عن ضجة الناس فى شارع البوا كى .

وكانت النادل فى هذا المحل من الفتيات الحسان فى زيهن التقليدى الأسود . والفتيات بالطبع يحترمن احتلاء الرجل بالمرأة ؛ فلا نظرة فضول ولا علامة تعجب . أما الزوجان اللذان كانا يجلسان فى الركن المقابل فكانا منهمكين فى حديث غزلى حاد صرفهما عن

الدنيا كلها لا عن الحل وحده . إذن ليس هناك مايدعو عقيلة إلى التحفظ فى الجلوس، أو يحملها على التورية فى الحديث ؛ فوضعت الشوكة فى طبق الحلوى ، وفتحت حقيبة يدها فسحت شفتيها الرقيقتين بالمنديل الأبيض ، ومرت عليهما بالإصبع الأحمر ؛ ثم أثبتت عينيها فى عينى معلمها وعادت إلى حديثها تقول : « لنعد إلى موضوع الدرس الذى بدأته فى الطريق . أنا أوافقك على أنى أجعل الدرس وسيلة للحديث . وماذا فى هذا مما تنكره ؟ ولم لايكون الحديث المرسل وسيلة إلى الدرس ؟ أليست فيه جملة تصوب أوفكرة تصحح أو مشكلة تحل ؟ على أنك أذكى من أن موه الحق عليك وأكتم ذات نفسى عنك . أنا منذ رأيتك استلطفتك ؛ فلما قرأت أحبتك ؛ ولما خالطتك عشقتك . وجدت فيك كل ما أبتغيه من رجل ، ووقعت منك على كل ما أرتجيه فى حبيب ؛ فذوقك وذوقى متحدان ، وشعورك وشعورى متجاوبان ، وحظك وحظى متشابهان . فلك زوجة لاتفهمك ، ولى خاطب لايفهمنى . وفيك حساسية تتعبك ، وفى حساسية تتعبنى . ولا أخفى عليك ، فقد كان لى نزوات مع الشبان كنت أبغى من ورائها نشدان من أحب ، ووجدان من أخطب . ولكنى علمت بعد طول الجولان والدوران أن القرين الصالح لايكون فى الأماكن التى أزورها ، ولا فى الدورات التى أدورها ؛ فقنعت بابن عمى : وهو كما تعلم يملأ العين ولا يملأ القلب ، ويرضى العقل ولا يرضى الذوق . وخير مافيه خلق صريح ، وضمير نقى ، ولسان عف ، وثقة بمن يحب لا تجوز عليها ريبة ولا تنال منها وشاية . فأنا لا أحبه ولا أبغضه ، ولا أقبله ولا أرفضه . ولكنى منذ عرفتك ضاقت نفسى بهذه القناعة ، وعادت مرة أخرى تتطلع إلى حياة النور والشعور والحب : فوقفت عندك وحامت عليك . ولا أدرى وقد فتحت لك قلبى ، وصارحتك بحبى ، أتستجيب إلى أم تنبو على ؟

قالت ذلك ووضعت على المائدة مرفقيها ، واستندت ذقنها بكفيها ، ثم حدقت فى وجه حافظ وسكتت تنتظر مايقول . وكان حافظ يستمع إليها وهو ساهم واجم مطرق ، لا يقاطع ولا يراجع ولا يعترض . فلما فرغت من حديثها رفع إليها طرفه وقال : يظهر ياعقيلة أنك ذكرت نفسك ونسيت غيرك . نسيت أنك مخطوبة وبنت عم ، وأنى متزوج وصديق (أمين) . فهمت عقيلة بأن تجيب لولا أن قال لها حافظ : اسمعى إلى كما سمعت إليك ، ولا تراجعينى قبل أن أفرغ . إن أمينا صديق وصفى ، ومن حقه على أن أحفظ ذمته وأرعى حرمته . ولقد لابسته طويلا فما ذممت عهده ولا اتهمت وده ، ثم إنى عرفتك لأنى عرفته ، وصادقتك لأنى

صادقته . وما دخلت بينك وبينه إلا لأوثق الألفة بين قلبك النافر وقلبه المطمئن : فقد شكا إلى كثيراً طول إعراضك عنه وسوء رأيك فيه . وما أراك تكرهين منه إلا حسن نيته وخلوص طويته واستقامة خلقه. وهل يضير الرجل ألا يكون فكه الطبع وهو صاحب جد ، وألا يكون لين الحديث وهو صاحب عمل ؟ إن الفتاة التي تعرف معنى الزوجية وتدرك سر الأمومة لا تجعل من بيتها منتدى ولا مرقصا ولا حانة ، ولا تطلب من زوجها أن يكون شاعراً يطارحها الغزل ، ولا سميرا يناقلها الحديث ، ولا نديما يقارعها الكأس ؛ وإنما تجعل من بيتها عشاً يفيض بالحنان والحب ، وحرما يشيع الراحة والسكينة ؛ وتطلب من زوجها أن يكون عاملا يكسبها الثروة ، وفاضلا ينيلها الشرف ، ومخلصا يذيقها السعادة . وأمين جدير بأن يكون هذا الرجل ، إذا كنت أنت جديرة بأن تهيئي له ذلك البيت

ثم سمعتك تذكرين الحب وتفسرين به تلك العاطفة التي تجدينها في قلبك لي ، وأنا أيضا لا أكذبك قد شعرت بأن نبتة من هذه الفصيلة الحمقاء قد نبتت في قلبي لك ؛ ولكنني أحاول جاهدا أن أمنع عنها الغذاء والري حتى تموت . لا أقبل أن أكون قطيعة قلبين أرجو أن أؤكد بينهما الصلة ، ولا أن أكون شقاء صديق أريد أن أوفر له السعادة . وماذا يقول الناس عني ؟ ألا يقولون : صدق المثل « أرسلته في حاجته فتزوج ! » وماذا يقول الناس عنك ؟ ألا يقولون : ثوب تخرج من قلب لتدخل في قلب ، كما تخرج من ثوب لتدخل في ثوب ؟

دعي المشكلة يا صديقتي ترتد ونحلم . واعملي على أن تظل الصلة التي بينك وبيني علاقة صديق بصديق ، أو علاقة شقيقة بشقيق . وستجدين في الحب الذي يخلصه لك أمين ، وفي الصداقة التي يخصني بها حظك ، متعة الروح وسكينة القلب وبهجة العيش

فقالت عقيلة : هل أفصحت عن كل ما في نفسك ؟

فقال لها : بالقدر الذي يعادل ما قلت .

فقالت : أما كلامك فإذا قسناه بقياس العقل والمنطق فلا اعتراض عليه ولا معارضة فيه . وأما إذا قسناه بقياس القلب والشعور انقطعت حجته ووهى دليله . إن الحب لا يخضع لمبدأ ولا يستكين لقيود . ومن يريد أن يطبق قواعد الأخلاق على الحب ، كان كمن يريد أن يطبق مواد القانون على الجنون . فأنا أحبك وكفى . وفي سبيل هذا الحب لا أتردد في قطع كل صلة ، وإبعاد كل قرابة ، وإنكار كل عرف

فقال لها : وما ثمرة هذا الحب إذا لم يفض إلى زواج ؟

فقالت : أنا أريد هذا الزواج . فإذا لم تُرده أنت فلتكن ثمرة الحب كما تكون . عهدي بشرطك أن تظل دائماً معي كما يكون الزوج مع زوجته ، أو الحبيب مع حبيبته . ولا أبالي بعد ذلك أن تكون علاقتي بك عقداً عند مأذون ، أو عهداً عند شيطان . وعاهدتك بشرفي أن أظل لأمين الخطيبة الوفية والزوجة المطيعة . ثم رفعت يدها اليمنى وحركت سبابتها في الهواء منذرة وقالت : « إني أريدك يا حافظ بأي ثمن ! فإذا بدا لك يوماً أن تقف دون إرادتي تركت لك الوجود كله ! »

فقال حافظ وهو يتكلف الابتسام ويتصنع الهدوء : « عبث طفولة ونزوة شباب ! ومازلت قوي الرجاء في أن تراجعي نفسك وتشاوري عقلك فيما قلتِ وقلت ! »

وكان عقربا الساعة قد اجتمعا عند الساعة الثانية عشرة ، فقالت وهي تنظر في ساعة يدها وتشير إلى العقربين المجتمعين : « يجب أن نظل هكذا وعقرب الثواني معنا ! » ثم نهضت ونهض حافظ وركبا سيارة لبثا فيها صامتين مفكرين حتى بلغت بهما البيت فودعها ثم رجع

٦

لم يشأ حافظ أن يغير من نظامه ولا أن يخرج عن عادته ؛ فقد رأى من الحكمة أن يعالج الأمر باللين ، ويستعين على الداء بالسكون حتى ينكشف الأمر . فذهب إلى عقيلة في موعد الدرس فوجدها مضطربة البال ، كاسفة الوجه ، محمرة العين ، لا تستقر على حال من القلق . كانت تخشى ألا يجيء ؛ لأن هيئته في السيارة ولهجته عند الوداع لم تبعثا في نفسها الطمأنينة ، فلم تكد تخلو إليه في المكتب حتى أقبلت عليه والدمع يترقرق في عينيها ، وأمسكت كتفيه بيديها وهزتهما هزاً رفيقاً وقالت له : لك الله يا حافظ ! لقد أسهرت جفني حتى الصباح . كان شيطاني يوسوس في صدري بأنك لا تجيء !

ثم أدنت صدرها من صدره كأنما تريد أن تعانقه ، فردها بيديه رداً ليناً ، ثم أجلسها على الكنبة وجلس بجانبها يريد أن يسكن من روعها . ولكنها انفجرت بالبكاء وألقت بنفسها عليه ، فارتبك حافظ وحاول أن ينحيها عنه لينهض مخافة أن يدخل عليهما المكتب داخل فيسمع البكاء ، ولكنها سقطت بساعديها على ركبته وأنحت على يده وذراعه بالتقبيل واللثم وهي تقول في نحيب وضراعة : « لا تفارقني يا حافظ ! قل لي إنك لي ! أنت أول من أحببت فلا تفجعني في حبي الأول ! ليس ما بي عبث طفولة ولا نزوة شباب كما قلت : إنما هو الحب الذي طالما سمعت به وقرأت عنه . عذبت كثيراً من الشبان عن عبث ولهو فانتقم الله لهم مني .

عدنى بأن تكون لى على أى حال . وإذا كان أمين هو العقبة فإنى سأفسخ خطبته ، وأنكر قرابته » . ودخلت الخادمة تحمل القهوة وعقيلة على هذا الوضع ، فتظاهرت بالإغماء ، وأخذ حافظ يربت خدها ويدلك يدها . وطلب من الخادمة شيئا من روح النشادر أو ماء الكولونيا فذهبت مسرعة ، وجاءت الأم وهى تحمل المنبهات ، فأضجعت ابنتها على صدرها الرءوم وهى تقول لحافظ : « توقعت أن تصبح عقيلة مريضة ؛ فقد باتت ليلتها تتململ ، وتتقلب ، وتخرج من الغرفة إلى الشرفة ؛ ثم تدخل من الشرفة إلى الغرفة ! » ثم بدا من عقيلة ما دل على أنها أفاقت ، فنقلتها أمها إلى الفراش . وانتهى الدرس وانصرف المعلم .

* * *

خرج حافظ كالحالم لا يدرى كيف يسير ولا أين يتجه . لم يكن يحسب أن الحب قد برح بعقيلة إلى هذا الحد وفى هذه السرعة . وعزا هذا الطغيان الغرامى العاتى إلى تأنيبه عليها وتحفظه معها وتجافيه عنها . فإن الفتاة العاطفية المدللة التى تعودت أن ينزل على حكمها الأهل ، وتجرى على هواها القلوب ، لا تطيق أن ينصرف عنها وجه ، أو يمتنع عليها طلب ، أو يطيش لها سهم .

ولكنه لا يستطيع أن يفعل غير ما فعل . الأمر بينها وبينه واضح : إما أن يتزوجها فتكون كارثة على صديقه ، وإما أن يخادنها فتكون نكبة على ضميره ! فأما الحالة الثالثة وهى الصداقة البريئة فقد ردتها بعنف ورفضتها بعناد . على أنه قدر فى نفسه أنها إذا يئست من الزواج والمخادنة رجعت بالطبع إلى الصداقة . واليأس وإن كرب الصدر وصدع الفؤاد ينتهى بعد زمن قصير أو طويل إلى الراحة .

وكان قد رجع إلى منزله ، فجلس إلى مكتبه وأخذ يكتب إليها هذه الرسالة :

عزيزتى عقيلة :

لقد كان من فوق احتمالى أن أراك تبكين هذا البكاء الحار بين يدى فى هذا الصباح بعد أن عشت من أمسك ما كابدت من الأرق والقلق طوال الليل . لا أدرى كيف تطور الأمر بيننا هذا التطور الذى يكدر الصفو ، ويفرق الشمل ، ويمزق هذا الثالوث الذى جمعه الود والإخلاص . ليس لك يد فى ذلك ، إنما هو القدر الذى يصيب بالحب كما يصيب بالحمى ، ويبتلى بالهوى كما يبتلى بالعمى . ولقد شبهتنا فى حديثك بالأمس نحن الثلاثة بعقرب الساعات وعقرب الدقائق وعقرب الثوانى فى تمام الساعة الثانية عشرة ، يجتمع اثنان فى هدوء ، ويفترق الثالث فى اضطراب . وقد كنت أنا قد شبهتنا من قبل بالأقانيم الثلاثة التى يتكون منها واحد فى رأى المسيحية ، وهى الآب والابن وروح القدس وأستطيع بعد

أن سمعت منك ما سمعت فى محل الحلوى وفى مكتب الدرس أن أشبهنا أيضا بثلاثة (جوتة)، وهم فرتر وكستنر وشرلوت . ومن العجيب أن الثلاثات الثلاث تتشابه فى أن واحدا منها لا بد أن يضحى فى نفسه ، ليضمن السلامة لغيره . فمقرب التوانى كتب عليه أن يدور منعزلا فى مداره الخاص لينتظم عمل الساعة . والابن صلب على قول النصارى ليكفر عن خطيئة آدم . وفرتر انتحر على رواية جوتة ليوفر السعادة لحبيبته ولصديقه . وأنا ياعقيلة لا أريد ولا أنت تريدين أن يموت واحد منا . أريد وأود لو تريدين أن يعيش ثلاثتنا فى ظلال الصداقة الخالصة وادعين عائشين لا يدخل بيننا شيطان ، ولا يشوب حبنا ريبة . وأسأل من الخير أن تقطع الدرس من الغد لتستأنفه حين يثوب الهدوء وتثوب العافية . أما زيارتى إياك فلن تنقطع . سأزورك مع أمين فى كل ليلتين ما أسعفتنى الفرصة وأمكننى الحال . وسأكون لك وخطيبك على الأبد الحب الوفى والصديق الأمين

حافظ

ثم غلف الرسالة وبعث بها مع خادمه إلى منزل عقيلة .

وفى صباح اليوم التالى زاره فى بيته أمين وأخبره وهو جزع مضطرب أن حالة ابنة عمه سيئة ، فقد قضت ليلة أمس الأول على غير عادتها ساهرة تتردد بين الغرفة والشرفة . تقرأ ساعة وتفكر أخرى ، فأصابها برد شديد بلغ الرئة . وقد تركتها بين يدى الطبيب وحرارتها تسع وثلاثون ، لأصحبك إليها فقد طلبتك

جزع حافظ لهذا الخبر وأشفق على عقيلة من عقبى هذا الداء . وأسرع فارتدى ثيابه ثم انطلق مع صديقه إلى منزل عمه .

كانت عقيلة حين دخل عليها الصديقان مستلقية على ظهرها فى الفراش وعلى جبينها كيس الثلج ، ومن حولها أمها وبعض سيدات الجيزة . فلما رأتهما أشارت إلى أمها أن تخلى لهما مكانا بجانب السرير . فانصرفت السيدات وجلس الرجلان حيث أرادت المريضة

والتفتت عقيلة إلى حافظ بفتحتين من تحت كيس الثلج . وكانت عيناها وخداها يتوهجن من وقدة الحمى . وأخذت يده فى يدها وقالت : قرأت رسالتك مرارا حتى وعيت ما فيها . ثم دسستها تحت الوسادة ليقرأها أمين . وإنى أشكر لك ما أفضته على صداقتى لك من نبل ، وما أسديته إلى علاقتى بأمين من فضل . وأحمد الله على أن اختارنى من بين ثلاثتنا لأكون فداء لنا قد ينال محبتكم من فرقة ، ويصيب مودتكما من فتور . وإنه بيده التضحية مغتبطة وعنها راضية . لقد أذقتمانى فى هذه الفترة القصيرة من عمرى أنه

ما فى هذه الحياة المرة من حب وغبطة. كانت لذتى فى أن أمرح وألهو فيهما لعا فى هذه اللذة. وكانت سعادتى فى أن أحب وأحب موفرعا فى هذه السعادة. وإذا قضى الله أن أفارقكما اليوم كما يحدثنى حدس قلبى، فلن أقول فى وحشة القبر إنى لم أنعم بالأنس، ولا فى ظلمة العدم أنى لم أسعد بالوجود. وحسبى يا حافظ أن أحيا فى ذاكرتك وذاكرة أمين. ستجدانى ثالثتكما فى كل مكان تقصدانه، وفى كل حفل تشهدانه. وستحس يا حافظ حين تأكل أو تشرب تلك اليد العابثة التى كانت تخطف عن طعامك فتنهبه، أو عن شرابك فتشربه ...

وغلبها البكاء فسالت مدامعها الحرار الغزار على صدغيها الملتهب. ولم تملك الصديقان عينيهما فانتحبا انتحاب الطفل. وتجلد حافظ فغيض من دمعه وقال لها وهو يمسح ظهر كفها بباطن كفه: لا بأس عليك يا عقيلة إنك بخير. وستشفين بعد أيام فيلتئم الشمل ويستمر الدرس وتعود البهجة!

ولكن عقيلة وا أسفاه كانت أصدق تعبيرا عن مشيئة القدر؛ ففارقتهما بعد أيام وخلفتهما للحسرة التى لا تهدأ، والعبرة التى لا ترقأ. لا يجدان العزاء فى تسلية ولا متعة، ولا يجتمعان إلا على ضريحها صباح كل جمعة.

أحمد حسن الزيات

أقتل أم انتحار؟

حل اللغز الذى نشر فى العدد الثانى من الرواية تحت هذا العنوان

من المستحيل أن يبقى جسم شخص ميت معتدلا وسط المقعد وبخاصة إذا كانت السيارة قد اجتازت طريقا طويلا كثير المنعرجات والفجوات. لهذا رأى المأمور الحادث قتلا لا انتحارا

لماذا

للكاتبة الفرنسية آن باتر

بقلم الأستاذ محمود خفيف

لى صديق شاب ، وكم اتخذت من قبله أصدقاء ! ولكن لم يكن فيهم من كان له فى نفسى أثر . صحبتهم إلى السينما أو إلى المرقص ، كانوا يجيئون أحيانا إلى مكان عملى فرادى باحثين عنى ، فما هو إلا أن ينقضى المساء ثم لا يبقى لمن صحبته ذكر فى خاطرى

ولكن هذا الصديق يختلف عن هؤلاء .

ولست فى الواقع أعرف من هو إلا أنى أشعر حياله كما لو كان ملكا لى . ولم يتحدث إلى هذا الصديق قط . ولكنى أفهمه حق الفهم من نظراته إلى . وإنى لأعرف أنه لا يريد أن يغرر بى أو يتخذنى هزوا ، وها أنا ذى أنتظر أن يسعى إلى

ولا يكاد ينظر إلى صديقى هذا ، حتى أجدنى غير ما كنت . ثم أشعر أنى لم أعد أرغب فى الرقص وأحب أن أبقى معه وحده صامتة . ثم إنى حين ينظر إلى أشعر أنى فتاة أخرى ، فأنا أحس عندئذ أنى أكثر ذكاء وأكثر احتشاما . وأحسب أنه يحبنى على هذه الصورة

لقد رأيته أول مرة فى مرقص كنت أذهب إليه مساء كل سبت مع زميلة لى . وكان يجلس وحده ، وسرعان ما أخذته عيناى إذ لم يكن رجل مثله فيمن حوله . ولست أصفه بالوجاهة فحسب ، فقد كان شيئا فوق هذا . لقد كان له من جمال السمت ما يميزه من كل شخص يحيط به

كان حسن الهندام ذا شعر يعجب من يراه ، ويدين جميلتين أو مرموقتين كما يقول عنهما الناس ، ولم يكن صديقى من الطبقة التى أنتمى إليها

إنه ليشرب وحده ، ويطعم وحده ، وينظر إلى كل راقصة ومراقصها ولا يدعو إلى مائدته امرأة أبدا ، ولقد ظننت أنه سوف يدعونى إليه ، ولكنه لم يخطر ذلك بباله يوما ؛ كان ينظر إلى فحسب . وضحكت ذات مرة ضحكة عالية أسترعى بها انتباهه ولكنه أشاح عنى فى صورة أشعرتنى بكثير من الخجل كما لو كنت ارتكبت جرما . وأحسست أنى أزعجته ، وإن كنت لم أتبين على أى وجه كان ذلك ؛ ولبثت بقية ليلتى صامتة

ورأيته هناك فى الأسبوع التالى وكان

لا يزال يجلس وحده . وقد استمر الحال بضعة أسابيع على هذا المنوال . إنه ينظر إلى لا أكثر ولا أقل ، وهـذا كل ما أجده منه . ولطالما تعجبت ، وذهبت بى الظنون كل مذهب : أيتخذنى مسلاة ؟ فإنه لا يحـاول أن يتعرف إلى . أبه نوع من الجنون ؟ أهو من سـكره لا يفيق ؟ ولم أجرؤ على أن أسأل أحدا فما أحب أن أظهر بمظهر من تسعى فى طلبه . ولم أتحدث بكلمة عنه إلى جانين صاحبتى التى أطلعها على كل شئ ، وأتحدث إليها عن كل شئ . ولست أدرى لماذا لم أنبئ صاحبتى . وأكبر الظن أنى خشيت ألا تفهمنى . وربما ذهبت إليه فأنبأته وأفضت إليه بكل شئ ، تقصد إلى العبث والمزاح

لقد احتفظت بحبى سرا دفينا كما لو كنت أكتم ذنبا . وأعجب من ذلك أنى كنت أشعر أحيانا بالخجل من هذا الحب . أجل كان يخجلنى أنى أكتمه . وإنه لتمر بى أيام فلا أمسك لحظة عن تذكر صاحبى ، إنى لأحلم به إذا نمت ، وإذا أفقت كان شخصه ماثلا فى خاطرى كأن وضعت صورته الشمسية أمام عينى

وأحسست من حبى أول الأمر بالسعادة ثم أحسست بالمضض . وازدريت صاحبى ، وما لبثت أن شملتنى كآبة شـديدة . والآن أشعر بشئ من الخوف ولست أدرى لهذا الخوف سببا

لقد سئمت سؤالى نفسى : ترى من هذا الرجل ؟ ولم لا ينفك ينظر إلى ؟ إنى لأعلم أنى أعجب من يرانى ، ولـكن هناك مثلى كثـيرات ، وأكثر منهن من يفقننى جمـالا ... لذلك حق لى أن أتساءل ماذا يبتغى منى ؟ لقد اختلـط على الأمر حتى ما أدرك شيئا سوى أنى أحبه . ربما كان مرد ذلك إلى أنه يلهو بى ويتسلى بأن يلعب بلب صبية مثلى . ولـكنى لست أراه كهؤلاء الذين يلهون بمثل هذا العبث

ولقد تحلق حوله ذات ليلة صديقات ، وكانت صـديقاته يتدثرن بالفراء ، وكن يضحكن ضحكات عالية ، ولقـد أورثنى مرحهن الضيق ؛ على أنى مالبثت أن تبينت أن ذلك لم يغير شيئا مما كان بينى وبينه

إنه فى تلك الليلة مابرح ينظر إلى . ومن أعجب الأشياء فى الحب شدة شعور من مسه الهوى بكل شئ يمت إلى عاطفته بسبب . لهذا فهمت نظراته ، ولم أحس فى نفسى شيئا من الموجدة عليه . بل لقد فطنت إلى أن بينى وبينه تفاهما هو نوع من الموافقة على أنه لا يمكن حينئذاك أن يزيد على ما كان عليه . وعلى ذلك فقد قنعت بأن أنتظر . ولئن كان يريد أن يبلو مبلغ احتمالى فلا على

من ذلك فإن شيئا لابد أن يحدث بيني وبينه يوما ما . وإني لعلى يقين أن حالتنا هذه لن تمتد إلى آخر العمر . وإذا لم يكن ما بيننا هو الجد فلن أفكر فيه بعد اليوم وأحسب أنه من جانبه يرى هذا الرأي

* * *

وقضيت على هذه الحال أياما وإنها لتجربة عجيبة حقا . إلى أن كنت ذات ليلة فأحسست أني كاسفة البال محزونة ، أتذوق طعامي ولا أكاد أسيغه . وربما كان ذلك هو السعادة الحق ، ولكني لم أذق مثل هذا من قبل ولست أدري ماذا بين شعوري هذا وبين الأسى من فرق

وكنت على ظن أن جانين لن تلبث أن تحضر إلي فتنتشلني مما أنا فيه . ولبثت أطل من نافذتي قلقة أحس ضيقا شديدا ، وأشعر بالحسرة لأني لست أمضي مسرعة إلى المرقص قبل الموعد كما كنت أفعل من قبل وملء نفسي النغم ، فتلك كانت حالي التي تعودت . أما الليلة فحسبي أن أنظر إلى قطرات المطر ! وإن مرآها ليشعر النفس بالحزن كما يشعرها به الضباب ، فإنها لدقيقة حتى لا نكاد تبصرها الأعين ، وإنها لتكاد تحجب نور المصابيح ، وهي كذلك تخفت الأصوات . ولقد كنت أحب المطر من قبل وما غشيتني منه كآبة قط . بل لقد كان الأمر على عكس ذلك فكان المطر ينعشني . وكنت أحب كذلك الأضواء والأصوات إذ كانت تبعث في نفسي من النشوة ما تبعثه الراح في نفوس غيري . وأغرمت بالمشي في الشوارع المزدحمة لأسمع أصوات الباعة وأبواق السيارات . وكنت بحيث إذا سمعت نغمة الفالس ورأيت الراقصين ، وجدت في ذلك ما يكفي لأن يشيع الطرب في نفسي ، ويجعل عيني ترقصان ورأسي يدور . وكثيرا ما قال لي أصحابي وصويحباتي إني أسعد بمجرد الوجود . ولكنهم وا أسفاه لن يستطيعوا أن يقولوا ذلك اليوم فإني لأشعر أني أكبر سنا وأكثر عقلا ... وأحس الليلة كثيرا من التعب ، ومع أنه لم تمسسني وعكة شعرت كما لو مسني المرض . ولم ترفع الصحاف من مائدتي ، ويبدو الإهمال في غرفتي . مما تبصره العين من طعامي الذي تراكم في طبق واحد وكأسي التي لا تزال ملأى ، وفوطتي الملقاة على البساط

ما أشد ما يبعثه هذا المنظر من حزن ! إني لأحس ما تحسه ذات الضنى ، ولكني أشعر أنه هناك يتطرقني . ولست أدري ما إذا كان يشرح صدري لهذا ، ومع ذلك فإني أتحرق شوقا لرؤيته . أجل تكاد تقتلني الرغبة في لقائه الآن

لن أستطيع صبرا بعد ذلك . إنه يجب أن يكلمنى ؛ وتطلعى إلى ذلك دون نتيجة إنما هـو الموت شيئا فشيئا كل يوم

ليست بى رغبة فى الرقص ، ولست راغبة فى الذهاب إلى المرقص . وما كنت أذهب إلى هناك من أيام مضت إلا لأراه . ولكم أحب أن أقابله فى أى مكان غير هذا فى حديقة مثلا أو فى قهوة صغيرة حيث لا يوجد من يحيطون به . أما هنا فإنه ينبغى أن أتظاهر بأنى أمتع نفسى كيلا يفطن إلى سرى أحد . وهـذا مجهود يشقينى . ولكن هل يشقينى حقا ؟ هل أستطيع أن أقول صادقة إنى لم أجد فى ذلك متعة وأنه لم يكن واجبا فرض نفسه على ؟

إنى هناك مضطرة إلى أن أعمل ما لا أريد وأقـول ما لا أحب . فإذا رفضت أن أراقص شخصـا فربما ظن أنى أتخير الرجال . وليس ذلك هو الحق فإن فى الرجال من ينفرنى . فيهم من يبلل العرق أيديهم ، وفيهم ذوو الشعر الذى يفرز مايشبه الدهن ، وفيهم من يحمر وجهه إذا سخن . ولقـد تبينت أن ذلك كلـه ضرب من الحقارة ، وأحسـست أن صديقى الذى لم أعرف بعـد من هو كان يزدريني لأنى لم أفطن إلى ذلك من قبل . لقد تغيرت شيئا فشيئا حتى أصبحت وكأنى دخلت فى إهاب فتاة أخرى

وإن ذلك يضايقنى ولـكن فيـه شيء من المتعة . بيد وإنى ليحزننى أحيانا الا أكون ما كنت من قبل ! ألا ما أشد تعقد الحب !

يالهى ! ها أنا ذى فى غرفتى منذ ساعة لا أعمل شيئا وأبدو قبيحة المنظر قبحا مروعا ، هندام غير منتظم وشعر أشعث ، وأنف يبرق من الركام . لابد أن أصلح من حالى لتتعلق بى الأبصار . آه ! مالى أرتعش ؟ لابد أن أكون حذرة فى تبرجى مخافة أن تحدس جانين أو غيرها شيئا . ولابد أن أحتفظ بسرى طى الضمير حتى أصبح على بينة من أمرى

إنى بسبيل أن أظفر بالسعادة ، ولسوف أحظى بها ، وأنا منها جد قريبة . إننا لن نستطيع أن نظل صامتين أكثر من هذا . وإن نفسى لتزداد رغبة يوما عن يوم حتى ليصبح تنفسى تنهدات طويلة . ولابد أنه يشعر مثل هذا الشعور

أيتنحى المطر عن الذهاب ؟ كلا فإنى أحب المطر . ولسوف نعدو تحته حتى نبلغ المرقص . وسوف أدخل وشعرى يبرق بقطرات الغيث ويشرق منداة من أثر الهواء البارد البليـل كالفا كهـة أخرجت لتوها من الثلج

وأسرعنا الخطى صوب المرقص ، وكانت لاتكف جانين عن الثرثرة . وقلما أصغيت

إليها، وقد كنا متأخرتين فقلت لنفسي: هي أنه خرج أو لم يأت هذه الليلة ! لقد اعتدت أن أراه كلما دخلت صالة الرقص يجلس فى نفس المكان ويحييني بنظرة . إنه يثبت فى نظرته ولكني لا أجد فيها شيئا من الابتهاج، وإن كنت أقرأ فيها كل مرة قوله لنفسه «ها هي ذي قد أتت »

ولقد ضايقتني جانين بعض المضايقة بثرثرتها التي لا تفتر . ولقد قيل: قل لي من تصادق أقل لك من أنت . وأملت أن تهدأ بعد حين فإني لا أحب أن يظنني على شاكلتها

ولقد توثقت المودة بيني وبين جانين . ولم يكن فى حياتها شيء يختلف عن حياتي . وهي لحسن الحظ لا تدري أني ثقفت أشياء كثيرة . وكنت أصيح بها أحيانا « أمسكي ياجانين . . كفى » وكنت أحيانا أمزق الزهرات الصناعية المثبتة فى شعرها فإنها لم تكن مناسبة قط . ولقد نظر صاحبي ذات ليلة إلى المشط الماسي الرائع المثبت فى شعري ، نظرة جعلتني لا أضع فى رأسي ذلك المشط أبدا . لقد أصلح من ذوقي ، وبعد عجيبا أن كان مرده إلى شخص لم يتحدث إلى قط . وإني الليلة أبدو جميلة وإن لم يكن فى ملابسي شيء مما يأخذ العين

لقد كنت أرتدي فستانا أسود جديدا لا شيء فيه من بهرج ولا زينة ، وكان شعري متموجا بعض التموج وليس فيه حلي . ولقد أردت أن أكون على نقيض جانين لأني أعلم أن ذلك يسره

آه ! إنا على مقربة من الرقص ! وإن قلبي ليثب فى صدري ، وإن خطاي لتبطئ . لقد جذبتني جانين من يدي وأنا شديدة الاضطراب . ولو لم أخف من دخول الرقص وحدي لطلبت إليها أن تسبقني — ها قد بلغنا الرقص ! إني خائفة كما كنت أبدو حين كانوا يسألونني أسئلة فى المدرسة . لقد فتحت الباب جانين وحيانا مزيج من الدخان والموسيقى والضوضاء ثم لفنا هذا المزيج وشملنا . وإني لأحس أول الأمر كما لو كنت عمياء ، ولكني أستجمع شتات شجاعتي وأفتح عيني — أحمد الله — إنه هنا !

ما أشد ما يبدو من هدوئه وسط هذا المكان الهائج المزدحم ! لقد أشاع ذلك فى نفسي سكينة عظمى ، لأني شعرت أنه إذا توقح أحد على أو ضايقني أقبل هو ليتقذني إذا دعوته . وإني لأحب أن أكون فى حمايته فإن لقتي به جد عظيمة . ولقد يبدو ذلك منى سخيفا إذ لست أعرف شيئا عنه .. ولكن ماحيلتي وهذا شعور لا قبل لي بالتخلص منه ؟

وقلت فى نفسي : يا عجبا ! لقد كنت

عازفة عن المجيء إلى هنا ! لا شك أنى كنت مجنونة ! وبينما كنت واقفة هناك إذ عثرت لنا جانين على مقعدين بالقرب من فتية أصدقاء كنا نعرفهم . وكانت الصالة مكتظة ، ورحت أتنقل فى عسر شديد بين المقاعد والموائد ولا أفتأ أقول : « معذرة » كلما خطوت خطوة لأنى كنت أصدم كل مائدة . . يا إلهى ، إن مائدتنا ملاصقة لمائدته ، وإنى لا أقوى على رفع بصرى إليه . ولقد لاحظت ذلك جانين فقالت « ماذا دهاك وما هذا الذى يرتسم على محياك ؟ » ووددت لو خسفت بى الأرض . وخالجتنى رغبة فى الخروج من الصالة !

وذهبت جانين لحسن حظى إلى حلبة الرقص ورفضت أن أذهب معها . . ويلاه ! ينبغى أن أتماسك فأقضى على ما بى من اضطراب شديد . ولكنى لا أستطيع . إنى لأبدو كما لو أنى اخترت هذا المكان عن قصد فإنى على مقعد يجاوره ! وإنى لأشعر كما لو كان يحملق إلى ولكنه ينظر أمامه لا يحول بصره ولا يتحرك !

إذا التقت عيناى بعينيه هذه الليلة ، فلن يجيء ذلك عفوا . إنه يحدث لأننا هكذا أردناه . ولكننا نجلس كلانا فى غير حراك كصورتين جانبيتين على وجهى نوط ! (ميدالية) . ويشتد اضطرابى حتى لأحس أن بى سقما ، وأكاد أفضل لو أنى جئت فلم أجده . ولكننى أتلهف على أن يحدثنى وتشتد لهفتى إلى حد أن أشعر أنه يسمع مايدور بخلدى فيحمر وجهى كأنه قطعة من الوهج

وينتهى الرقص ويعود الراقصون ومراقصاتهم إلى الموائد . ويطلب الفتية كئوسا من الخمر المشعشعة . وأنظر ابتهاجهم وأرى كيف يتنادون فأتظاهر كما لو كنت لا تربطنى بهم صلة ؛ ويبدو ذلك منى سخيفا لأنه يعلم أنى أعرفهم

وتملأنى الحيرة وأنا بجانبه . ويدخل المكان قادمون جدد ويتزاحف الناس بمقاعدهم متلاصقين وأجدنى أتزحزح حتى أزداد قربا منه ، وتمس ملابسى معطفه مسا خفيفا ولكنى أشعر كما لو هزت الكهرباء بدنى من قمة رأسى إلى إخمصى ! فأثب وألتفت نحوه ، ولأول مرة أثبت عينى فى عينيه ثم أقول : « أسألك المعذرة »

ولعله لم يفطن إلى شيء ، ولذلك يتعجب من قولى هذا . وربما ظن أنى حمقاء ، ولكن لم تعدلى حيلة وقد حدث ما حدث . وابتسم وهو يقول « عفوا »

آه ! كم أحببت صوته ! وكم أحب كل شيء يحيط به ! ولقد كان يقول لى غيره من الفتية « عفوا » قبل ذلك ، ولكن

أفواههم كانت تبدو كما لو ملأتها الغراء ..

ولكن أهذا كل ماسيقوله ؟ أيقف عند هذا ؟ يالهى إنى أسألك ألا يتوقف الآن . ألا يحب أن يحدثنى ؟ أكان يكذب كل ليلة حين كان ينظر إلى ؟ ولم أطق صبرا فتمتمت قائلة « إن الطقس حار الليلة ، أليس كذلك ؟ » إنه يبتسم ثانية قائلا « جدا » ولا يقول غير ذلك . أتراه يعبث بى ويسخر منى ؟ ولكن ابتسامته لاتنم عن هذا فقد ابتسم فى ظرف . ويظل ينظر إلى دون أن يتكلم كأنما ينتظر أن أمضى أنا فى الحديث . وأحس أنا كما لو كنت أغرق ولكنه لايمد يدا لينقذنى . ورأيت أنه لابد لى أن أتحدث فإنى إن لم أفعل ذلك الآن فلن يكون أبدا . ففلت أشير إلى الموسيقى « إنها جوقة جيدة » فقال « لابأس بها » . ولقد فاه بهذه العبارة ليوافقنى فحسب ... تبينت ذلك فيما ارتسم على فمه . وعالج نفسى شعور عجيب كما لو كنت قد فهت بكلام سخيف ولم أدر ماذا أقول بعد ذلك ...

ولا يبرح ناظرا إلى فى صمت ، وقد ارتسم على محياه مزيج من التلطف والتسلية . إنه لن يأخذنى مأخذ الجد وإن ذلك ليكربنى ولكنى أقول لنفسى لا ضير فقد يكون وراء ذلك ماهو أسوأ ؛ ثم إنى أستشعر من الثقة قدرا لم أستشعر مثله من قبل وأقول صبرا ما دام يفكر فى . وينبغى ألا يتطرق إلى نفسى اليأس بمثل هذه السرعة . وإذا كنت لا أستطيع أن أتحول بفكرى عنه فالذنب فى ذلك ذنبه ، فلا ينبغى أن ينظر نظرات كهذه إلى فتاة لايحبها . ومع الحق كله إذا اعتقدت أنه يحبنى وإذا أظهرت له الحب كذلك . ومن جهة أخرى إنى لم أر فى حياتى رجلا خجولا مثله فى سن كسنه . إنه لم يعد بعد غلاما فهو فى الثلاثين من عمره على الأقل . وأفرغت كأسى فى جرعة ، فبدا ذلك حلقى وكاد يخنقنى ، ولكنى أحسست أنى خير مما كنت . وعاد بعض الفتية ومرافقاتهم إلى الحلبة ، وبقيت فى مكانى . وأراد فتى أن يما كسنى فقال « بعد أن تأخذى حظك من الراحة اكتبى إلى رسالة » وأحسست أنه متغيظ ولكنى لم أعبأ به . واتجهت إلى صديقى وقلت فى ثبات « ألا ترقص أبدا ؟ » فأجابنى بقوله « لست أحب الرقص » ثم تبدو صرامة فى وجهه ويشيح عنى . ويعود بيننا صمت طويل أحسست أنه باعد بيننا بأميال . وأتفكر ثم أتفكر ، وكلما تفكرت أحسست أنى منه أسوأ مما كنت ... أسوأ كثيرا لعمرى . الآن أدرك لماذا يجيء إلى هنا . إن نفسه تنطوى على ذكرى ! هذه هى حاله لا شك . لقد كان يحضر إلى هنا من قبل

ولم يكن يومذاك يحضر وحده . ولا بد أنى أشبه صاحبته ، وهذا سبب نظره إلى دائما . وأرتعد وأنا على مقعدى وأنب من الألم . يا لى من بائسة ! لم يعد ثمة لى من أمل ! ولعمرى ما هذا الذى كنت أفكر فيه ؟ ما هذا الذى كنت أمنى نفسى به ؟ أهو رجل كهذا الرجل ؟ إنها لسخرية بالغة !

وينتابنى شعور بالسقم ، وأحس كما لو كان قلبى يتقطع . ويضع يده على ذراعى فأقول لنفسى إن لم يسحب يده فى الحال فسأصرخ ، وأرى أنه لحسن الحظ لا يلاحظ شيئا . . ثم إنه قال لى « أتحبين الشمبانيا ؟ أقصد النوع الأصيل . » ولم أذق قط ما هو أقوى من الخمر الشمشمة ولكنى أومأت إيماءة القبول وأنا أعض على شفتى وأحس كأن حلقى لا يريد أن ينطلق

ومما زاد حالى معه سوءا على سوء ما كان بغيضه على من ظرفه وتلطفه ، فلقد كان من الظرف بحيث لا يسعنى إلا أن آخذ كل شىء بقدمه إلى ، وإنى لآخذ كل شىء وأنا أشعر أن ليس وراءه ما يحمل له معنى

ثم اتجه إلى قائلا « هذا حسن فلنحاول أن نشرب زجاجة إذا كان لديهم هنا ذلك النوع » ثم تقبل السافية على إشارة من يده ، ويحضر لنا صاحب الصالة بنفسه زجاجة مما طلب ، ويبدو عليه الاهتمام وهو يضعها أمامنا وتنظر إلينا جانين ومراقصها وهما يدوران فى الحلبة وتشير إلى بذقنها وأقرأ فى وجهها أنها تقول عنى « لقد بلغت منه ما تريد وليست صاحبتى بحمقاء » آلا ليتهما تعلمان ما بنفسى !

وأدور بعينى أنظر فى الصالة فهذه آخر مرة لى فيها ثم أرفع رأسى قائلة له « أشرب نخب صحتك يا سيدى » فيجيب قائلا « وأشرب نخب هنائك يا طفلتى »

ويسود الهدوء فى الصالة شيئا فشيئا ، فقد أخذ منذ لحظات يغادرها الناس ، ولم يبق إلا أربعة أشخاص أمام المائدة التالية وتتجه جانين بنظرها إلى وتصيح بى قائلة إن المكان أمسى فاضيا وتحاول أن تغرينا بالانتقال إلى محل آخر وتومئ لى بعينيها ولكنى أتظاهر بأنى لم أفطن إلى ذلك ، ثم أحس أنها صارت تضايقنى . وتقبل جانين آخر الأمر وقد أشبعت نفسها من الرقص فتمد إلى يدا بليلة قائلة « إلى اللقاء فى غد »

إنها صائغة بى ولكنى أتنهد ولا أجيب إذ تدعونى . ألا إن الحياة ساعتئذ شىء عظيم . وحسبى من عيشى هذه الهنيهة فلا حساب لشىء غيرها وها هو ذا بجانبى !

وأسمع نفسى أتكلم ، ويخيل إلى أن صوتى يأتى من بعيد وقد أمله سكون عميق امتزج به حفيف لا أدريه . إن هذا ليس

بصوتى ولست أنا التى أتكلم ... إنى أسمع صوته هو كما لو كان هـذا الصوت بداخلى وإنه لشعور عجيب !

ويحتجب النور على الحائط ضباباً مفاجئاً كما كان يحتجب نور الشارع منـذ قليل ضباب يغمل النظر ؛ وتقترب منى الجدران أحياناً بحيث لا أستطيع أن أراها ، وقد عشيت عيناى كما لو كنت أنظر فى قرص الشمس ، وتبتعد عنى الجدران ثم تقترب ، وتهتز وتتأرجح فتحملنى معها ، وأحس أنى أسمع صوتاً كذلك الذى تسمعه الأذن إذا وضع فوقها إحدى قواقع البحر !

وقد حال بينى وبين الشمبانيا منذ لحظة قائلاً : «حسبك الآن» ؛ ولكنى أمسكت بكأسى فى إصرار جعله يضحك ويدعنى أشرب . وبدا كأنه أب يداعب ابنته الصغيرة وهو إلى جانبها يحميها وإنه كذلك يحمينى

لقد شربت منذ لحظات لأنى كنت حزينة ، وإنى أشرب الآن لأنى سعيدة ! أجل ... ولم لا ؟ إن الأمر أيسر مما تظن ... إن الليل لن ينتهى أبداً ، وإن كل شئ يجرى إلى غير نهاية !

ورأيتنى ذات شخصيتين . وإنى أنظر تارة احتقار إلى شخصيتى الأخرى . وإنى أحب وجهى فى المرآة وجهى الذى أراه الليلة ، ولا أكاد أعرف نفسى . إن عينى تبدوان أكبر من حقيقتهما ووسطهما نجمتان متلألئتان كذلك النور الذى ينعكس من الماء وتطرف أهدابى ويتندى فمى

كلا .. كلا لست أشعر بنفسى شعوراً أضطرب له . وإنى أحس الشجاعة وهدوء الأعصاب . وأضع يدى مبسوطتين على المائدة وأثبت فى عينيه نظرتى . وهذا مهم ؛ فنظرته هى كل شئ عندى ، وإنها لتعنى أكثر مما يعمل ساعدان أياً كانا

وأحس الرغبة فى مزيد من الشمبانيا ، كما أحس الرغبة فى التحدث إليه ، وأفتح له قلبى وأخبره بكل ما كان هنالك يؤلم روحى . وينظر إلى كما أحس أنه ينظر إلى طفلة أفسدها التدليل ويبدو وجهه محزوناً ، ولكنه يقول لى فى ثبات ما عرفت مثله منه « إنك ذاهبة الآن إلى بيتك . يجب أن تفعلى ذلك فى هـذه اللحظة . وأرجو أن تغفرى لى بقائى بعدك هنا لحظات ... من أستطيع أن أرافقك حتى بيتك ؛ وسوف أدعو إحدى النادلات هنا لتصحبك .. أوه ... أرجوك ... أرجوك ... لا تبكى »

وكانت تنهمل دموعى وأنا ممسكة بإحدى يديه قائلة « لا يمكن أن يكون هـذا صحيحاً .. لن تستطيع أن تتركنى وأن تجتنبنى .. كلا ليس هذا بصحيح»

ولم أستطع أن أتوقف هذه المرة وكانت

تندفع كلماتى فى سرعة كسرعة دمعى إذ يتساقط فرحت أقول له « ليس لك من حق فى أن تعاملنى هذه المعاملة . . لقد طالما حلمت بك . . أجل كثيرا ما فعلت ذلك حتى تعلمت أن أحبك ، وأن أعرفك على بعد . لقد كنت حياتى بالليل وبالنهار وإنك لتعلم ذلك . ولو أنه بدا عليك أنك تسخر منى مرة لقضى الأمر بينى وبينك ، ولكنك مضيت تتطلع إلى عن قصد كما لو أنك تشعر بنفس شعورى . . إنى أدرك بفتاة أخرى ، أليس كذلك ؟ ولكن ماذا يعنينى من هذا إذا كنت تحب صورتها فى ؟ إنى سوف أكون لك الفتاة التى تقبلها وسوف تأخذنى بين ذراعيك . ولم أحلم بشئ غير هذا . وإنى لأراك فى كل مكان . وإنه ليحدث أحيانا أن أعدو فى الشارع خلف رجل لأنه يشبهك وأعرف حينذاك مبلغ حمقى . وحين أكون فى بيتى أتحدث إليك فى جهر ، وحين أعير ثيابى أسأل نفسى ما إذا كانت تعجبك . ولقد غيرت طريقتى فى تصفيف شعرى فهل لاحظت ذلك ؟ إنى أعرف الآن ماذا تحب . إن فتاة غبية مس الحب قلبها هى أذكى كثيرا مما تظن وإنك لا تدرى أى سنيع قدمته لى . ما الأصدقاء ؟ إنى لم أعد أحفل بأحد منهم . فالفتيات عبء على أعصابى ، والفتية مبعث ضيق لى . وإنى لأحس نفسى غريبة حتى فى غرفتى التى تعودت أن أحبها وما ذلك إلا لأنى أعيش فى دنياك ، تلك التى بلغت من البهجة ما أحسست معه أنها حقيقة لا خيال . لقد جعلتنى أترك حياتى السالفة دون أن تحل محلها حياة أخرى . والآن تريد أن تسقطنى من حسابك ! وماذا عساى أصنع بعد ذلك ؟ ماذا بقى لى ؟ خبرنى ماذا تريد ؟ »

ولم أستطع المضى فى كلامى فقد ارتعد ذقنى وغاب الدم من يدى حتى ابيضتا . ورأيته منكس الرأس يمس يدى فى رفق وبطء . وعرفت أنه يريد أن يتكلم فتعلقت أنفاسى وأحسست كأن قلبى يوشك أن يقف . يا إلهى لست أقوى على عذاب بعد هذا . رب اجعلنى أحتفظ به . لست أقوى يا إلهى على فقدانه الساعة ..

وحملقت فى عينيه وانتظرت ، وبدا عليه أنه كذلك يتألم ولكن ليس على شاكلتى . إنه يبدو مستسلما كما لو أنه اعتاد ذلك . وإنى أحس أنه يألم ، ولكنه يرثى لحالى

وأمسكت الجوقة وأخذ الموسيقيون يضمون أدواتهم . ونظرت إلى بيان قد أغلق فيما لى كأنه تابوت . وراح الخادمات يضعن الكراسى مقلوبة فوق الموائد . وكان لا يزال هناك بعض الضوضاء فى حجرة صغيرة هى حجرة الشرب ، وقد دخلها بعض الزبائن يشربون كؤوسهم الأخيرة

وبات كل شئ هادئا كما هو الحال

كل يوم عادى . وأنا بجانبه أتلوى من الألم وأنتظر أن يتكلم وأحسست أنه إذا جذب يده من يدى وقعت فى الأرض ، أقع كما لو جثم على صدرى كابوس فقد كانت يده هى الحلقة الوحيدة التى تربطنى بالحياة

وأخذ يصب الشمبانيا بيده الطليقة فى كأسينا . أيريد بهذا أنى صرت محتاجة إليها ؟ لقد وددت أن أصرخ بكل قوتى قائلة «لا» كما لو كانت هذه الكأس الأخيرة كأسا ملعونة !

رحمتك يارب . لست أطيق هذا العذاب وإنى أحبه . . أحبه بكل قوتى . .

وسمعت نفسى أعيد بعبارات أكررها مرات كما تفعل البلهاء ، وقد توترت أعصابى حتى لقد أيقنت أنها سوف تتحطم كما يتحطم غصن ميت . وشعرت كما لو كنت على حافة هاوية بعيدة القرار وأنى موشكة أن أتردى فيها . ياله من هول ! وشد ما علانى الرعب ...

لقد كان هذا الصمت مرعبا . وكان هذا الصمت القصير فى حساب الزمن وكأنه عمر من الشقاء والألم وكأنه أبدى كالحاقة نفسها

ويأخذ فى الكلام فأرهف سمعى إلى كلماته ، وتخرج كلماته من بين شفتيه كلمة كلمة فيقول «أى طفلتى المسكينة : لم يكن بدور بخلدى أن حالك فى مثل هذا السوء . أرجو أن تغفرى لى ما أفعل يا فتاتى المسكينة . ينبغى أن نخلص كلانا من هذا الوضع فورا ، وبذلك يترك كل منا صاحبه ... لا تتكلمى ... استمعى إلى ... يجب أن تغادرى هذا المكان الآن وأعدك ألا أعود إليه ثانية . ولا تسأليني أن أصحبك إلى بيتك فلست أستطيع ذلك . . ولست تستطيعين أن تفهمى لماذا ... لقد كنت أتمنى ذلك جدا لو أنك تعلمين ... »

ورأيت خلال دموعى أن قد ارتسم على وجهه سرور باليأس فقلت فى نفسى : «يا إلهى ، أريد أن أعلم لماذا . يجب أن أذهب الآن فى سرعة قبل أن يفسد كل شىء ... إنى واثقة الآن من أنه قد انتهى كل شىء ؟ وأنى ذاهبة وحدى إلى بيتى . ولكنى أحب أن أعرف لماذا ... لماذا ينتهى كل شىء ؟ لماذا ؟ يجب أن أعرف فلا أدع نفسى فريسة لحيرة تلازمنى طول حياتى ... لماذا يتركنى ؟ إنه إذن يحبنى ... وعندئذ ألقيت بنفسى بين يديه صارخة : لماذا ؟ ثم أزداد تعلقا به وأعود فأصرخ : لماذا ؟

ولا يطيق صبرا بعد هذا ، وأرى فى وجهه مزيجا من اليأس والتهكم ! إنه يستحيل أن يفصح . ياله من موقف مرعب ! ولكن يجب أن أعرف لماذا يتركنى . لقد أيقن أنه لا يستطيع أن يتركنى دون أن أعرف لماذا ، والخير لى أن أقف على الحقيقة ولو كان فيها ما يزيدنى أذى . وماذا عسى أن يضيرنى

من جرح هين صغير يضاف إلى جراحاتى ؟
وعدت أقول له : خبرنى لماذا . أفصح ...
أفصح ولتؤذنى فلست أبالى ... ومع ذلك
عاد الخوف يملأ قلبى

وأخيراً قال لى « أتريدين حقا أن تعلمى
لماذا ؟ » ونظرت إليه فوجدته قد تغير فجأة
حتى لا أكاد أعرفه ، وقد بدا على محياه
مزيج من اليأس والكبرياء . وعاد يقول لى
« إنك تريدين أن تفسدى كل شئ ...
هل عقدت العزم على أن تسمعى ؟ » ثم هز
كتفيه . فقلت فى نفسى : ربما كان ما أسمعه
خيرا بالرغم من كل شئ

ويعود فيسألنى « أتريدين حقا أن
تعرفى لماذا ؟ »

فصحت به قائلة « نعم » ثم عاد يملأنى
الخوف ، ولقد اشتد خوفى حتى لقد انقلب
هذا الخوف شجاعة

« حسن . إذن فانتظرى »

وكانت لهجة الأمر فى كلمه هذه . ثم
إنه جذبنى إليه وأسندنى إلى كتفه وأخذ
يقبلنى فى عنف وأخذت أشعر بقبلاته
تسرى فى بدنى كله وأحس أنى جزء منه .
وأتبين أنى لست الآن ثملة بالكلمات
والشمبانيا ولكن بشئ آخر وعلى صورة
أخرى . إنى أشعر وفمى على فمه وهو يبث
فى هذه الحيوية الدافقة ، بتيار الحياة ينبعث
حارا فى أوصالى وفى جسمى كله . ثم يدعنى
فينتهى كل شئ وأحس بالبرودة تشملنى
ويقول لى « هيـــا بنا نذهب ..
أتحبيننى ؟ »

فأجيبه قائلة : « أحبك »

ثم ينزلق فى بطء .. أجل ينزلق
من مقعده ويقف بجانبى وأنظر فإذا به من
قصر الساقين بحيث أشعر بالرغبة فى أن
أضحك ملء شدقى .. ماهذا ؟ ! وهو على
الرغم من منكبيه العريضين وامتلاء نصفه
الأعلى لا يكاد يصل إلى كتفى وهو واقف
بجانبى على ساقيه المسيختين

وأحس بالرغبة فى أن أطلب من القزم الصفيح
وأن أظل على حبى إياه وأن أقول شيئا ،
ولكن ذلك كله يبدو لى سخيفا ، فليس
ثمة ما أقوله ولقد فرغ بالى منه فراغا تاما ...
ألا ما أغرب هذا الحلم !

وانطلقت من الصالة كأنى أعدو دون
أن أنظر إليه ، وأتمثله هناك واقفا على ساقيه
المحدبتين القتضبتين كأنه لعبة هزلية تمثل
أحد الجند

واندفع فى طريقى ثم أندفع ، وفى خيالى
ذلك الذى رأيته وهو نصف رجل .. وأشعر
بقلبى يفيض حسرة وأحس فى جسمى
دبيب الثورة ..

ولكن لكل يوم غد بالضرورة ..
وغدى ؟ ترى ماذا يكون الغد ؟

محمود الخفيف

تصفية حساب

للأستاذ نصرى عطا الله

كانت أطياف المساء قد بدأت تنشر غلالاتها السمراء على أعطاف المدينة وتمزج نسماتها الندية الوادعة بالهواء الراكد الثقيل كأنما تسأله بعض الرفق والحنان بعد يوم قائظ ملتهب الأنفاس

ووقف «رأفت» فى شرفة غرفته يرقب فى ملل وسآمة الظلال الطويلة وهى تبهت شيئا فشيئا ثم تنمحى فى مد الظلام ، ثم أرسل بصره فى الأفق البعيد ، وندت عنه زفرة مثقلة بالشجون . .

لقد مضى زمن طال لا ينتهى ، وهو ينتظر مغيب الشمس وانخفاض حرارة الجو كى يبارح غرفته تلك وجوها الخانق القابض ، وينطلق هائما فى الفضاء الوسيع علّه ينفس شيئا ما عن صدره المثقل بالأكدار والهموم. وكان اليوم يوم عطلته الأسبوعية ، وقد ظل منذ الصباح حبيس ذلك الجحر القذر الذى يعيش فيه . وقد فكر فى الخروج ولكنه لم يستطع أن يتغلب على خموله وسأمه ، أو يهتدى إلى مكان يرتاح للذهاب إليه ، وأخذ يفكر فى وسيلة ما يدفع بها الكآبة عن نفسه ففشل ، وكان اليوم شديد الحرارة يرسل زفراته النارية فتقبض المضاجع وتكاد تحبس الأنفاس فى الصدور . . وكلما تقدم النهار ازداد رأفت تبرما وسآمة وضيقا بنفسه وبالحياة ، ولم يبق فى وسعه إلا أن يعد الدقائق وهى تزحف فى بطء وتثاقل حتى يقبل المساء لينطلق إلى أى مكان تحمله قدماه إليه ، فقد كان كل همه أن يبرح تلك الغرفة التى يتمثل فيها بؤسه وفشله وخموله.

لقد كان ثائرا منقبض النفس ، تزداد نفسه ثورة وانقباضا كلما أجال عينيه فى ذلك الأثاث البالى المتداعى الذى تحويه تلك الغرفة القذرة ، بل تلك المقبرة التى تتلاشى فيها ستو عمره يوما بعد يوم دون معنى أو جدوى أو غاية ، كأنها أمطار الصحارى التى تضيع بددا فى الرمال ، أو دموع الثكالى تسيل غزيرة طيعة ، ولكنها لا ترد فقيدا عزيزا إلى الحياة

وما إن أحس رأفت أن ثائرة النهار قد هدأت قليلا بعيد الغروب ، حتى ارتدى ملابسه الرثة فى عجلة ودون اعتناء وخرج

دون أن يعرف له مكانا يقصده ، وفى الطريق سأل نفسه فى مرارة لماذا يعيش ؟ هل هناك غاية تربطه بالحياة ؟ وهل بقيت لديه آمال ؟ هل هو موفق فى حياته أو سعيد ؟ إنه يعرف الجواب الحزين على هاتيك الأسئلة ، بل يعرفه منذ أمد طويل ، ما الذى يغريه إذن بالبقاء فى هذه الدنيا ؟ أتراه الجبن وخوف الموت ؟ واعترف لنفسه فى مرارة أنه لم تعد هناك أسباب أخرى تدعوه إلى التعلق بأذيال هذه الدنيا التى أولته ظهرها منذ زمن بعيد ، ولو كانت لديه الشجاعة الكافية لما رضى أن يعيش ليأكل ثم يبكى على نفسه

ومضى يضرب فى الطرقات وهو يفكر فى هذه الحالة التى آلت إليها حياته ..

وكانت هذه النوبات تستبد به من حين لآخر ، فتملأ قلبه ثورة وألما وتشاؤما فيتمرد على نفسه وعلى الناس ، ويرى الوجود من خلال منظار قاتم لا يكشف إلا عن التتاعب والأوجاع ، وقد عرف هو ذلك عن نفسه منذ أمد بعيد

أما فى الماضى عندما كان مفطورا الحيوية واسع الآمال ، فقد كان يجزع كثيرا عندما يجهز قلبه بالثورة والعصيان على الحياة ، على حياته هو خاصة ! بل كان يقول لنفسه إن العاصفة لا تعصف إلا الأغصان الجافة ولا تكتسح إلا الأوراق الذابلة المحتضرة لتتيح للأوراق النضرة فرصة الحياة الشابة عندما يهل الربيع الجديد . وكانت تلك الثورات النفسية — على ما تكبده من ألم وأشجان — تملأ قلبه بشراً واطمئنانا ، إنها دليل الحياة المتطلعة إلى النور والخير والجمال ، وكم من مرة — بعد أن يثوب إلى الرضى والسلام بعد تلك الثورات — يجد نفسه أكثر صفاء ومضاء واحتفالا بالحياة وبالآمال الغالية التى وهبها حياته . لقد كانت ثورات الحر الأبى الطموح على عوامل الضعف والانحلال فى نفسه مع ثقته وإيمانه بقدرته على سحقها ، والتى خلص منها بقوة الروح وشباب العزم ، وكان إذ يتم له ذلك يشعر بنشوة روحية تغمر كيانه كله ، وسعادة عميقة صافية مثل سعادة المتصوفة والقديسين تملأ شغاف قلبه

ثم أتى زمان أصبحت فيه هذه الثورات النفسية المطهرة ذكرى من الذكريات الأليمة . إن قلبه ما زال يثور كما كان يثور فى الماضى ، ولكنها ثورة اليأس الحزين ، ثورة خاسرة يرجح فيها جانب الذكريات التعسة ، ورثاء العمر الضائع والآمال المبددة

كان فى الماضى كلما ثار قلبه عليه واتهمه بالتهاون والخمول ، وقف أمامه كما يقف

المتهم البرئ أمام القاضي . يفند اتهامات خصومه الواحدة بعد الأخرى ، ويقدم الدليل بعد الدليل على براءته ونقاء نفسه ، وكان يعرف كيف يستنهض كل قوى روحه حتى يواجه الأزمة في شجاعة ويتغلب عليها ، وكان يجد في الانهماك في عمله وفي تأمل الطبيعة ودراسة الفن السر الذي ينتشل نفسه من أدرانها ، ويرد عليها حيويتها وبشرها المفقود ويبدل نحيبها ألحانا

أما الآن فإن قلبه في مأتم ونفسه تضن عليه حتى بالعزاء . إنها تصم أذنيها عن نحيبه وصراخه ولا تأبه له ، بل إنها لم تعد تأبه لآلامها . لقد نسي نفسه في غمار الحادثات حتى تراكم عليها الصدأ والخمول وفقدت طعم الحياة

إن الزوابع التي تثيرها أفكاره وذكرياته في رأسه تكاد تفقده عقله ، ولقد هرب من غرفته . ولكن أين يهرب من أفكاره ؟

وفكر في أن يترك جو المدينة الصاخب ويتريض بعض الوقت على الشاطئ . إن بينه وبين البحر ألفة عميقة وثيقة ، وطالما ذهب إليه وهو متكدر النفس حزين الفؤاد ، فعاد وقد امتلأت نفسه اطمئنانا وسلاما . إنه يفهم لغة الماء وكم سمعها في ثورتها واصطخابها ، وفي وداعتها وسكونها ، وأحس بتجاوب أنغامها مع نبضات قلبه ، وشعر أن في تلك الأنغام والتسابيح التي يرتلها البحر دائما سرا يريح القلوب المتعبة ويهبها العزاء والسلام

وفي طريقه إلى الشاطئ رآها ... وكانت واقفة أمام واجهة محلات الأزياء تتأمل المعروضات ... ولم يباغت ولم تذهله المفاجأة برغم السنوات الخمس التي مضت منذ أن افترقا ، إنه يعيش في تلك المدينة منذ ثلاثة أعوام وهو يعرف أنها تعيش في نفس المدينة ، وظل طوال الأعوام الثلاثة يتوقع أن يراها يوما ما في الطريق أو في ملهى من الملاهي أو في أحد المنتديات ، ولعل موضع الدهشة أنه لم يرها من قبل ذلك

ووقف يتأملها في هدوء وهي لا تحس وجوده : ها هي ذي « أمينة » أمامه مرة أخرى ، أمينة التي عبثت بقلبه وحطمته وتركته أطلالا ، إنها ما تزال كعهده بها دائما مغرية كالتفاحة الناضجة ، ترى كم حطمت من قلوب خلال هذه السنوات الخمس

وهو [illegible] نفسه في [illegible] بالحرب ، ولكن خدمته [illegible] ، إنه [illegible] خلال تلك السنوات الطويلة التي أنفق فيها الكثير وعانى فيها الكثير وتبدلت أثناءها شخصيته تبدلا تاما ... إنه لم ينسها بل ظل يمني نفسه بأنه سيلقاها يوما ما ، إن عاطفة

عندما ظل يهتف به طوال تلك السنوات : إن قصتكما لم تنته بعد

واقترب منهـا فى هدوء حتى حاذاها ووقف يحدق فى المروضات التى كانت تتأملها هى متجاهلا وجودها محاولا طول الوقت أن يقمع ثورة نفسه ويمحو آثارها من وجهه وجبينه . وأدارت هى رأسها فى حركة غريبة فوقع بصرها عليه ولما عرفته أفلتت من بين شفتيها شهقة خافتة وأخذت تحدق فيه بعينين جامدتين ذاهلتين . وهى لا تكاد تصدق ، وهمست باسمه همسا رقيقا حالما فأدار رأسه نحوها ومد إليها يده مبتسما فمدت يدها نحوه وهى تغمغم بكلمات مضطربة متقطعة ، ولاحظ هو اضطرابها وأثر المفاجأة فى نفسها ، وهز صوتها المرتعش أوتار قلبه فقال لها مبتسما :

لقد كنت أحس دائما أننا سنلتقى مرة أخرى

فأجابت وهى تنظر إليه نظرة ذات معنى

— لا تزال تذكرنى إذن

— أذكرك ؟ أقسم لك أن صورتك لم تبرح ذهنى لحظة واحدة . إننى لم أسع إلى مقابلتك ولم أبحث عنك رغم تفكيرى المتواصل فيك لأننى كنت واثقا تماما أن الزمن وحده سيدبر أمر هذا اللقاء

ورفعت عينيها إلى وجهه دهشة فراعتها نظراته القاسية فقالت له وهى ما زالت تتأمل عينيه :

— لشد ما تغيرت يارأفت !

فرد عليها فى نبرة تفيض تهكما :

ومن ذا الذى لا يتغير ياصديقتى ؟ الزمن والمحن والحادثات تترك فينا آثارها . . ولكن شعرى لم يبيض بعد

فأجابته وهى تنظر إليه عاتبة :

لم أعن هذا مطلقا !

فقال سواء عنيته أم لم تعنه فإننى لا أظن أن تغيرى يثير سخطك أو أسفك . لقد أصبحت أكثر فهما للدنيا والحياة والنساء . وأنت ؟ ألم يتغير شىء فى حياتك ؟

فقالت : حياتى ؟ لقد انقلب كل شىء فى حياتى رأسا على عقب . لقد عانيت كثيرا ... وأصبحت مثلك — أكثر فهما للدنيا والحياة ... والرجال

وأردفت بصوت يفيض ألما واستعبارا وهى تهز رأسها

— لقد دفعت ثمنا غاليا لأتعلم

فسألها : وماذا تعلمت ؟

فأجابت : تعلمت أشياء كثيرة ، ألا تذكر أنك قلت لى مرة فى لهجة تنديد إن هناك أشياء كثيرة ينقصنى معرفتها

فقال : نعم أذكر وقد قلت لى فى لهجة ساخرة ، ومن ذا الذى سيعلمنى ؟

فقالت : نعم لقد سخرت منك ساعتئذ يا رأفت وبدا عليك أنك تألمت وقلت لى فى مرارة :

سيعلمك الزمن

فسألها : وهل تحققت نبوءتى ؟

فأجابت : نعم تحققت

وأحس من نظراتها الحزينة ونبراتها المجهدة الدامعة أن قلبها مثقل بهموم كثيرة فهل يسألها ؟ إنها تتكلم دون تحفظ كأن السنوات الخمس التى مضت منذ افتراقهما لم تكن إلا حلما وانتهى وتبدد فى ظلمة الليل ولم يزل من صداقتهما الوثيقة التى تمتد هو أن يحققها حقا ، وتردد لحظة ثم قال لها فى لباقة :

— ليس من حقى أن أسألك عن كل شىء كما كنت أفعل فى الماضى

فقالت : لا ... إن ذلك حقك فى كل حين ... إننى فى حاجة إلى من أشكو إليه

وقال لنفسه إنها — كما يبدو — لم تعد تلك الماكرة اللعوب التى كانت تقسم وقتها بين اللهو والعبث بالقلوب ؛ ولكن سرعان ما هتف به هاتف آخر يقول : لا ، لقد كانت دائما ناعمة لبقة تجيد التمثيل

ومضت فترة صمت قطعتها هى بسؤالها

— إننى مشتاقة إلى أن أعرف عنك كل شىء .. هل تزوجت !

فأجاب : أتزوج ؟ حاشا لله !

فسألته فى دهشة ولم ؟

فأجاب ساخرا فى مرارة : لم ؟ لأننى أفضل ألا أعيش مخدوعا .. ألم أقل لك إننى أصبحت أكثر فهما للحياة والناس ؟

وأحست وهى تسمع كلماته التى تقطر مرارة ونقمة كأن سهما مسموما قد مرق إلى قلبها وإن كان قد سرها أنه لم يتزوج .

ورفعت نحوه بصرها عاتبة لتقابل عينيه القاسيتين وقسماته المتجهمة ، ولم يكن من العسير عليها أن تدرك ما يرمى إليه فهو لم ينس بعد أنها خدعته وسخرت من قلبه وعواطفه فى الوقت الذى كانت تتظاهر فيه بالود والإخلاص ولكن ... ألم تطفئ كل هذه السنوات ثورة غضبه ؟ ما باله يهاجمها هكذا فى مرارة ولم ننقض دقائق على لقائهما بعد هذا الفراق الطويل ! وشعرت بالحرج ، ونكست رأسها وأخذت تحدق فى الأرض وهى تقول لنفسها إن جرحه لم يندمل بعد ، ومرت فترة صمت طويلة قطعتها بقولها :

— ما أغرب هذا الكلام منك أنت ! يبدو أنك تنكرت لقلبك وماضيك

فقال : فى الماضى كنت مغفلا كبيرا ، أما الآن فقد تعلمت ، ولعلك تعرفين كم كان الثمن فادحا ، وأنت .. هل تنكرت لماضيك ؟

فأجابت : إن التي تحدثك الآن امرأة عانت وتعذبت وتعلمت درسا جيدا

فقال : لقد جاء الدرس متأخرا ، ألا توافقيني ؟

فقالت : نعم ، لا يضيرني أن أعترف أن الدرس جاء متأخرا

ثم حل الصمت والوجوم بينهما مرة أخرى وكانت أمينة تعرف طباع رأفت جيدا وقد اعتادت في ماضي أيامهما أن ترى منه مثل هذه الثورات النفسية ولكنها لم تتوقع في هذه المناسبة أن تسمع منه مثل هذا الكلام

وبددت الصمت بقولها :

إنك متعب الليلة ولا أريد أن أضيع وقتك ... هل نلتقي ثانية ؟

فقال : كما تشائين

وبرغم ما سمعت به من امتهان وإساءة رأت نفسها مدفوعة بكل ما في قلبها من مشاعر وحساسيات إلى استرضائه واستعادة مكانتها عنده فقالت له في نبرة رقيقة عاتبة وهي تلقي في عينيه بكل ما في نظراتها من عطف وحنان

— كيف تقول إنك لم تنسني يا رأفت ثم تعاملني هكذا ؟ هل وقع لك اليوم ما أهاج أعصابك ؟ إنك ما زلت كما كنت في الماضي طفلا كبيرا تفرح إلى حد الجنون وتغضب إلى حد الثورة .. سنلتقي يا رأفت مرارا لا مرة واحدة ولن نفترق أبدا .. فقل لي متى ألقاك أيها الطفل الكبير لأعترف لك بكل شيء وتعترف لي بكل شيء ؟

وأحس وهو يسمع صوتها العذب بثورته وعبوسه يزايلانه شيئا ما . واتفقا على موعد يلتقيان فيه ولم ينس وهو يصافحها أن يعتذر لها اعتذارا ضعيفا عما بدر منه فتقبلت اعتذاره في رقة وهي تقول :

هذه أول مرة ؟

وافترقا ، وتابع هو سيره حتى وصل إلى الشاطئ ، وكان رأسه يغلي بالأفكار كالقدر الفائرة ... ما أقسى القدر حين يريد أن يسخر ! أما من ساعة يراها فيها غير هذه الساعة المشئومة التي تراكمت فيها على قلبه كل أحزان حياته ؟

لقد خيل إليه وهو يسمع صوتها يفيض حنانا ورقة أن قلبه شرع يفيق من إغماء طويل . وكانت قد مضت شهور طويلة لم يتحدث خلالها إلى أنثى ، ولكنه لم يكن يتوقع أو يتمنى أن تبعث « أمينة » من قبر الماضي في تلك اللحظة وتسوق معها إلى فكره وقلبه ذكريات كاسفة حزينة تحطمت على صخرتها آماله ومستقبله وأوصلته إلى الحالة التي يكابد مرارتها الآن

* * *

عندما لقيها للمرة الأولى كان قلبه خليا

رقيقا لم تمحص أعلافه بعد، ولا تعمره إلا أحلام الشعراء وأخيلتهم الشفافة والشوق إلى رؤية «الحورية» التي ينتظرها منذ طويل كي ترد غربة روحه وتخفف من لوعة أشواقه، وتراءى له وهو ينظر في عينيها أن القدر قد استجاب دعوته وحقق أمنيته ... لقد كان ظامئا إلى العطف والحنان وقد وهبتهما له وأحس للمرة الأولى تلك السعادة الحقة التي لا نحسها إلا في كنف مخلوق رقيق يستطيع أن يفهمنا ويستوعب آمالنا وإحساساتنا ويشاركنا إياها

وكان رقيقا مرهف الشعور واسع الآمال فاندفع في حبه الدافئ الواثق المطمئن ووهبها قلبه وروحه وجعلها موضع سره ونجواه ومعقد آماله الباسمة؛ فكانا لا يلتقيان إلا ويتساءلان الأسرار فقد كان رأفت حينذاك موظفا صغيرا بإحدى المدن وكانت أمينة مدرسة بإحدى مدارس المدينة ذاتها ... كلاهما غريب تحصى عليه غدواته وروحاته ولا يجد من يؤنس وحشته

وكان في الإجازات يتفقان على اللقاء في العاصمة حيث يذهب كل منهما لزيارة عائلته، ولكن سرهما لم يبق في الخفاء طويلا فقد رآهما في العاصمة بعض أهل المدينة التي يعملان بها ونقل الخبر إلى هناك، وسرعان ما عرف الجميع أمر العلاقة التي تربطهما وراحوا ينسجون حولهما الأقاويل والأقاصيص الطائلة، ولم تكد تنقضي أشهر قلائل بعد ذلك حتى تحول الهناء الذي نعم به رأفت فترة قصيرة إلى مرارة وألم، فقد حدث أن رأى أمينة أحد كبار الموظفين الذين يعملون معها في نفس البلدة فشغف بها شغفا بالغا، وما أن عرف ما بينها وبين رأفت من ود حتى حقد عليه فعمد إلى استغلال نفوذه لمضايقته وتنغيص عيشه. وأخيرا أفلح في تدبير أمر نقله إلى إحدى قرى الصعيد النائية، وهناك تحالفت على رأفت الوحدة والآلام والأشواق ولم يكن لديه من عزاء إلا الكتابة إلى أمينة وانتظار رسائلها

ومضت بضعة أشهر كانت من أمر وأقسى ما عانى رأفت في حياته... من يدري متى ينتقل من تلك القرية الكئيبة البعيدة عن الدنيا والحضارة؟ وكيف يعيش من غير الفتاة التي اصطفاها؟ وكيف يستطيع أن يدبر أموره ويعرض عليها الزواج؟ وهل تقبل أن تعيش معه في مثل تلك البلدة التي لم يعرف الماء النقي أو نور الكهرباء طريقه إليها بعد، فضلا عن حرها الفظيع في الصيف وما تحفل به مساكنها الحقيرة الضيقة من حشرات، هذا إلى انعدام وسائل التسلية بل انعدام الطعام اللائق أحيانا... إنها المنفى المختار للأشرار من

الموظفين ، وكل جريرته التي سيبت نقله إليها هو أنه أحب وأخلص

واتفق الحبيبان اللذان فرقت بينهما الأيام على أن يحصلا على إجازة فى وقت واحد ليلتقيا فى العاصمة وقد حددت أمينة موعد الإجازة بما يتفق مع ظروفها

وظل رأفت يعيش على أمل اللقاء والحنين يصهر قلبه حتى حل اليوم الموعود وسافر.. وبعد وصوله إلى القاهرة بساعات كان جالسا إلى أمينة على شاطئ النيل يبثها أشواقه وأشجانه ويشكو لهـــا ما يعانى من وحشة وآلام

وظلا يلتقيان كل يوم من أيام تلك الإجازة ويقضيان معا ساعات طويلة ولم يكن يضايقهما إلا قصر مدة إجازته التى لا تتجاوز عشرة أيام

واتفقا على أن يعدا العدة للزواج ولا سيما أنها قد أنبأته أن أحد كبار الضباط قد تقدم لخطبتها فرفضت فى إصرار مما أثار سخط أمها عليها ، واعترفت له فى صوت حالم أنها تريده هو زوجا لبساطته وإخلاصه وثقته بها ، وأخبرته أنها تسعى جاهدة لينقل من منفاه البعيد إلى العاصمة نفسها ، وأنها قد استعدت أحد أقاربها من المقيمين فى الريف إلى القاهرة لمعاونتها على تحقيق هذه الغاية إذ أنه يتمتع بنفوذ كبير فى دوائر الحكومة

وشكر رأفت للقدر — ممثلا فى شخصية أمينة — عطفه ورعايته ، ولم يعد بهرعه كثيرا شبح القطار الذى سينقله بعد أيام قلائل إلى قرية بعيدة لا يصل إليها فى أقل من أربع عشرة ساعة

وبينما كان رأفت ينسج من خيالاته أحلام الهناء إذ تدخلت المصادفة وأدت دورا من أدوارها الخالدة التى تقلب بها حياة الناس رأسا على عقب وتغير بها أحيانا وجه التاريخ

فقد حدث أن كان يتناول طعام الغداء مع أمينة فى مقصف إحدى الحدائق حين شاهد هو صديق من أصدقائه القدماء الذين ترجع صلته بهم إلى عهد التلمذة فترك رأفت المائدة وتقدم من صديقه « صلاح » وحياه تحية حارة ودعاه إلى مشاركته طعامه مع أمينة فاعتذر فى رقة وانتحى ناحية أخرى من المقصف بعد أن اتفق مع رأفت على موعد يلتقيان فيه

والتقى الصديقان القديمان وأخذ كل يستفهم الآخر عما لاقى فى زمانه ثم بادر صلاح صديقه بالسؤال التالى :

« هل تزوجت ؟ » فأجاب رأفت : كلا

فقال صلاح : أهى صديقة إذن

فقال : « نعم »

وأخذ رأفت يقص على صديقه قصة حبه لأمينة وما لقيه فى سبيلها من اضطهاد

وبين ما كاد صلاح يسمع بضع كلمات حتى بدا عليه الاهتمام والجد وتمعن جيدا وهو ينصت إلى ما رأفت وعلى شفتيه ابتسامة غامضة، وما كاد رأفت ينتهي من حديثه حتى قال له صلاح :

— مادمت تنوي الزواج فيجب أن أصدقك القول ما عرفته بنفسي إنني لم أر هذه الفتاة قبل اليوم ولكنني أعرف عنها أكثر مما تعرف أنت وإن كنت موقنا أنك لا تعرف كل شيء . ولكن ما سأقصه عليك يكفي لأن تدرك حقيقة أمرها ... إن هذه الفتاة لم تأت العاصمة من أجلك وحدك ولم تحدد إجازتها وإجازتك بمحض إرادتها بل نزولا على إرادة شخص آخر ... بل عشيق آخر تعرفه أنت جيدا ولقيته في داري مرارا وهو « كامل » ابن عمي

ورفض رأفت أول الأمر أن يصدق ، ولكن صلاح رجاه أن يسمع القصة إلى نهايتها . لقد التقى بها كامل مصادفة في أحد دواوين الدرجة الثانية بقطار الصعيد وكانت هي في طريقها إلى مقر عملها وهو في طريقه إلى بلدته فتعارفا وتحابا ، وكانا يلتقيان كثيرا في بعض بلاد الصعيد حيث لا يعرفهما أحد لأنه يقدمان إلى الفنادق معا على أنهما شقيقان أو زوجان ، ثم أخبره أن علاقتهما ترجع إلى أكثر من سنتين وقد سئمها كامل ولم تعد لديه رغبة إلا في التخلص منها ، إذ أنه يريد أن يتزوج بإحدى بنات بلدته . أما هي فلا تزال تحبه ولا تزال تمطره برسائلها الوالهة كل يوم وكل أملها أن يتزوجها وهو يسخر من رغبتها ولا يثق بها ولا يحترمها

ثم أنبأه صلاح أن كاملا قد حضر إلى القاهرة منذ أربعة أيام وأنه التقى بأمينة أكثر من مرة وقد رجت منه أن يساعدها عند ذوي الأمر على نقلها إلى الاسكندرية لتعيش مع عائلتها . وعندما افترق الصديقان حدد صلاح موعدا يلتقي فيه رأفت وكامل ليتناقشا في غرامهما المشترك

وتمت المقابلة وعرف رأفت من أمر أمينة ما لم يكن يعرف . إن كاملا لم يكن ينشد من وراء صلته بها إلا اللهو والتسلية ، أما هي فقد بهرها غناه وجاهه وليس لها من غاية إلا تحقيق مطامعها بالزواج منه

وشعر رأفت بقلبه يتحول إلى رماد عندما أطلعه كامل على بعض رسائلها إليه فإذا هي منقولة نقلا عن رسائله هو إليها ، تلك الرسائل التي كان يعتصرها من قلبه اعتصارا ويضمنها أعمق إحساساته وأقدس عواطفه

وأيقن رأفت أنه كان مغفلا كبيرا وبارح العاصمة دون أن يرى أمينة أو يودعها وعاد

إلى مقر عمله بذلك الإقليم النائى وهو محطم النفس حزين القلب مسلوب الأمل يتوزعه الهم والغيظ والرغبة فى الانتقام

وعبثا حاول أن يعزى نفسه أو ينسى مأساته بل كان يزداد على مر الأيام يأسا وتبرما بالحياة وسخطا على الناس ، وأصبح عصبى المزاج سىء الطبع كثير الهياج والعراك لأتفه الأسباب ، وتعددت مشاحناته مع رؤسائه وعوقب أكثر من مرة لإهماله فى عمله ، واستحالت البلدة الصغيرة أمام عينه إلى سجن مظلم . إن الأيام والشهور تمر كالحة متشابهة لا تأتى بجديد

ورأى زلت قدمه تنزلق إلى مكان ينعى حتى من التفكير فيه . لقد راح يبحث عن العزاء المفقود فى الخمر والميسر والعبث ، وأعرض عن صرخات ضميره ولكنه لم يستطع أن يخنقه فقد كان يشعر أنه يتدهور فيمتلىء قلبه ألما وندما ، ولكن ماذا يستطيع أن يفعل والسأم واليأس يكادان يقتلانه

وضاق به رؤساؤه بعد أن تعددت التحقيقات معه ، وثبت أنه موظف مشاغب سىء السيرة ، وما لبث أن انتهى به الأمر إلى الفصل

ومرت شهور طويلة لقى فيها رأفت كثيرا من الهوان والتشرد والعذاب قبل أن يوفق إلى عمل تافه شاق مرتبه يسد الرمق وكان عمله الجديد فى الاسكندرية . المدينة التى أنبتت أمينة ...

وهنالك عاش أيام قصة تدهوره التى بدأها فى الصعيد ، وكبله الفقر بقيوده الحديدية وحصر حياته وتفكيره وقلبه فى نطاق ضيق ليس إلى تخطى أسواره العالية من سبيل ! وظل شبح أمينة يلاحقه ويعذبه ليل نهار

إنه يتوق إلى كل شىء فيها وفى الوقت نفسه يحقد عليها كل الحقد ! ولم تعد لديه أمنية فى الحياة إلا أن تمنحه الأقدار الفرصة لينتقم منها أبشع انتقام أو يراها وقد أنزل بها القدر أقسى وأشد المحن هولا وبشاعة ، وكان كلما فكر فيما جنته عليه ازداد رغبة وتوقا إلى الانتقام

وعاش منطويا على نفسه ، يجتر أحزانه ويرقب موكب الدنيا والناس بعين الكراهية والنقمة ثم ...

... أين الحب الملهم والآمال الكبار ؟!

لقد كانت ذكرياته العزيزة الماضية تومض أحيانا فى رأسه وتهيج مشاعره وإحساساته فيهوله خموله وتدهوره ! ولكن عبثا حاول أن ينتشل نفسه من الهوة التى تردى فيها أو يبدد الظلام الذى تراكم على قلبه ، وأخيرا نزل على حكم الواقع واستسلم شيئا

فشيئا إلى اليأس ولم يعد له من مطمح إلا أن ينسى الماضي كله بما فيه من آمال وآلام وجروح ، ولكن كيف السبيل إلى ذلك وطيف أمينة لا يغيب عنه والحقد عليها ينمو في قلبه على مر الأيام ؟

والتمس شفاء نفسه في اللهو والحب الرخيص بالقدر الذي تتيحه له موارده الضيقة ، وبذل كل ما يستطيع ليخمد كل مشاعره وإحساساته التي كانت ترهقه وتثور عليه وتصمه بالإسفاف والضعة والهوان ، وعاش ليسخر من نفسه ومن الحياة وضجيجها الكاذب وما تزخر به من أنواع الشقاء الذي لا معنى له ولا جدوى ، وتساوى لديه الأشقياء والسعداء ، المنعمون والمحرومون .. إنهم جميعا مخدوعون فرض عليهم الاشتراك في تمثيل مهزلة الحياة واحتمال عسف القدر وبطشه راضين أو كارهين

ومضت الأيام وهو يحمل على كتفيه عبء الحياة كارها ساخطا ، ويفكر في الوقت تفكير الراغب الشفق ، ولم تزده تجاربه في عالم اللهو إلا سخطا واحتقارا للمرأة ، ورسخ في ذهنه أنها مخلوق غادر ميت الضمير ضائع الفضيلة ، ولا هم لها إلا إرضاء نزواتها وإشباع شهواتها ! وكان إذا سمع عن خيانة إحداهن قال وهو يزفر : كلهن كذلك

وهكذا عاش وظل يمني نفسه دائما أنه سيلقى أمينة يوما ما وينتقم منها ... ولم تكذب الأيام ظنه فقد ساقها القدر إليه في أصيل ذلك اليوم الحار

لقد أيقظت رؤيته لها كل ما كان يختزنه في نفسه من أحاسيس وانفعالات ، ومرت صور حياته كلها أمام عينيه وهو يتجول على الشاطئ ويستمع إلى صوت الأمواج وهي ترتطم بالصخور كأنها أنات جبار مكبل بالقيود والأغلال

نعم ، إنه سينتقم ويشفي غليله

* * *

ولما التقيا المرة الثانية قادها رأفت إلى غرفته تحت ستار الظلام ، وكان قد أعد العدة لتأدية الجسد التي ظل يشتهيها ويحلم بها منذ سنوات ، إنه سيحقق مطمحا عزيزا ظل يراود خياله طوال السنوات الخمس وفي الوقت نفسه ينتقم من تلك التي غدرت بقلبه بأن يغدر بها ويعاملها كإحدى المومسات المأجورات ثم يلقي بها في عرض الطريق

وأدركت هي نياته حين لمحت زجاجات الخمر ، وشبح الرغبات يتراقص في عينيه ... ورفضت أن تتناول قطرة واحدة من الشراب واعتذرت بأن بنيتها لا تحتملها ، وجلست ترقبه وهو يشرب في شراهة وكل ملامحه تنم عن بؤسه ويأسه وانكساره ، ومرت فترة صمت وهو يشرب وهي تخيل

في الغرفة الحزينة نظرة ألم وإشفاق وأدركت من هيئة الغرفة ما يعانيه الرجل الذي كان بعد المدة منذ خمس سنوات تنشط للحياة الطيبة الزاخرة بالآمال الكبار وقالت له في أسى بالغ :

— رأفت ... إنني لم أكن أتصور ...

فقاطعها قائلا : تصوري كل شيء ولا تتحدثي كالصغيرات الساذجات

فسألته : ولكن كيف ترضى لنفسك كل هذا ؟

ولم يستطع وهو يسمعها تتحدث كإحدى البريئات أن يكتم ثورة نفسه ، إنها تتجاهل أنها الشيطان الآثم الذي قوض دعائم حياته وتتكلم كإحدى القديسات اللواتي يؤلمهن مرأى الشر فاندفع يقول لها في حدة :

— بل كيف رضيت أنت كل هذا ... هل يمكنك أن تنكري أنك أنت وحدك السبب في كل ما أعاني ؟ هل نسيت فأقص عليك القصة من جديد ؟ لا شك أنك نسيت ما أوقعته بي من حسرات من بعدي ، ولكن ما قيمة تبقى ... الآن ؟ إنني لا ألومك على كل حال فحياتك خدعة كبيرة

فقالت : لا يا رأفت إنها ليست خدعة كبيرة

فسألها : ماذا تكون إذن ؟ الإخلاص والوفاء ورعاية العهود ؟

فأجابت : إنها الإخلاص والوفاء

وأطلق رأفت ضحكة ساخرة مجلجلة وهو يقول :

— متى اكتشفت هذا الاكتشاف الجديد ؟

فقالت : لا تسخر مني يا رأفت وكفاني ما عانيت ولا تظن أن من السهل أن أكشف عن جراح قلبي لكل إنسان ألقاه .. لقد لاقيت في هذه السنوات الخمس كثيرا من المحن والمصائب

ومضت أمينة تقص عليه قصة حياتها بعد أن أبعدت عنه ما تبقى لديه من الخمر وحالت بينه وبين الإسراف في الشراب . إنها لا تنكر أنها كانت غريرة طائشة لعبت وعبثت بكثير من القلوب واستغلت سذاجة الكثيرين ، ولكن بعد أن كابدت كثيرا .. إن كل من عرفت من الرجال كان يمنيها أطيب الأماني ويصب في أذنها معسول الحديث في حين أنه كان لا يزيد على أن يلهو ويستمتع ، وتعلمت هي منهم أن تلهو وتستمتع ، وأشرق هو في أفق حياتها ثم غرب فجأة عندما دفع صلته بها تعصف إرادته .. وحتى ذلك الحين لم تكن قد أدركت أنها ظلمته واستهترت بعواطفه ... فقد كانت تظنه واحدا منهم

ومرت بها أشتات من التجارب في دنيا

الرجال ثم تزوجت واستقالت من عملها ... وبزواجها بدأت الأيام السود إذ لم يكد يمضى على زواجها وقت طويل حتى استولى زوجها على ثروتها وكل ما ادخرته من مال نتيجة اشتغالها في أعمال كثيرة تدر أرباحا طائلة ، ولم تلبث أن اكتشفت خديعته وعرفت أنه أنفق مالها وقسم وقته بين الخمر والنساء وموائد القمار

وبدأ الشقاق بينهما أعنف وأعتى ما يكون عندما حاول زوجها أن يبيع بعض أثاث مسكنها وكانت هي تملكه كله ! واستمرت المشاحنات بينهما فترة من الزمن . ولما أدرك هو أنه قد سلبها كل ما تمكنه سلبه اختفى وعبثا حاولت أن تعثر له على أثر

وتزوجت ثانية بعد شهور طويلة من الأسى والوحدة والحرمان ، ولم يكن زواجها الثاني بأسعد من الأول . وكان الزوج الجديد حاد غليظ الطباع وحشي الخلق يحصى عليها حركاتها وسكناتها ويحاسبها على كل ما يريبه أشد الحساب ، وكان ضيق الموارد محدود الكسب ولم تستطع هي بدورها أن تحتمل شظف العيش وغيرة الزوج المتحكم فانفصلت عنه وعادت إلى أبيها ولكنه لم يرحب بها كثيرا

واشتد بها السخط على الرجال فعزفت عن الزواج وواصلت بحثها عن عمل جديد فلما وفقت عادت إلى مسكنها الموحش وعاشت وحدها في عزلة تكاد تكون تامة ، وبرغم ذلك لم تسلم من الريب والظنون وشباك الطامعين المغامرين ، وأدركت كثير من الزوار أن سيرتها في الأوساط التي تعرفها لا يرتاح لها أحد

وبدأت تضيق بحياتها الموحشة ووحدتها الكئيبة وتأسى على آمالها الضائعة ومستقبلها الغامض المعتم

وكان لا يزعجها إلا التفكير في المستقبل . هل ستقضى بقية العمر وحدها ؟ هل تغامر في دنيا الرجال وتصبح أداة رخيصة لتحقيق مطامعهم ورغباتهم ؟ لا ، لقد سئمت حياة المغامرات وسئمت التغيير والتبديل وفكرت كثيرا حتى أضناها الفكر فلم تجد أحلى من البيت الهادئ الذي يظلله السلام والاستقرار ، وتيقظت في قلبها غرائز الزوجة والأم وأصبحت تغار من أولئك اللواتي من الله عليهن بالشريك المخلص الأمين والنسل الطيب والبيت الهادئ الذي يفيض أمنا وسلاما ، ولكن أنى لها تحقيق آمالها ؟ وعاشت تئن تحت سياط الندم والألم وتحاسب نفسها حسابا عسيرا على ما جنته يداها ... لقد شربت من نفس الكأس التي سقت منها الناس

واستبدت بها آلامها لم تعرف إلى أي حد جنت على نفسها وأي ثروة غالية بددتها

حين خدعته وعاملته كالباقين ودفعته إلى الفرار من بين يديها . إنها لم تدرك ذلك إلا أخيرا وبعد أن نهلت من الذل والهوان حتى ارتوت وعرفت معادن النفوس وتاقت إلى الحياة المستقرة النظيفة

قصت أمينة قصتها فى صوت يفيض تأثرا وحرارة وندما ، واستمع رأفت إليها فى سكون ثم رفع رأسه الذى ظل منكسا طوال حديثها وقال :

— والآن ؟

وكانت نبرته تفيض مرارة وتشفيا ، ولم يفت أمينة ذلك ولكنها تجاهلته وقالت مبتسمة :

— والآن شكرا للقدر الذى جمعنا ثانية .

فقال وهو يتنهد :

— وما فائدة ذلك ؟

فقالت وهى تلقى عليه نظرة رقيقة عاتبة :

— هل فقدت كل أمل فى الحياة ؟

فقال : بل فقدت كل إيمانى بالحياة . . أنا من الهالكين .

وأضاف وهو يقترب منها باسما

— دعينا من هذا الحديث الآن . . ولنحى الحياة كما هى كما أعمل أنا

وصدت أمينة كل محاولاته للاقتراب منها ، وانتصبت واقفة وهى تقول :

— لا لا يا رأفت . . إنى لم آت لمثل هذا بل لم أتخيل مطلقا أن تقدم أنت عليه . لقد أتيت لأحدث رأفت الذى عاش فى خيالى طوال هذه السنوات مثالا للنبل والتعفف . انتظر منى رسالة أحدد لك فيها موعد اللقاء التالى

وتركته وولت هاربة كالغزال النافر

وقضى رأفت عدة ساعات بعد رحيلها وهو جامد كأنه تمثال من الحجر ولكن قلبه كان كالبركان الثائر الغاضب . وقضى بقية الليل فى فراشه دون أن يغمض له جفن وكان فكره كالقارب الحائر فى عرض البحر تتقاذفه الأمواج الثائرة المضطربة بين شواطئ الماضى العاصف والحاضر المضطرب والمستقبل الغامض المجهول — إن أمينة لم تعد فى نظره إلا حطام امرأة لم تلجأ إليه إلا بعد أن فشلت فى حياتها كل الفشل ؛ ومع ذلك فهو يحنو عليها . ولكن من الذى دفعها فى طريق الغواية ؟ من الذى حطم قلبه وبعثر آماله ؟ أليست هى ؟ ومرة أخرى قال لنفسه إنه سيحطمها حطما ويريح منها الحياة والأحياء . . ومع ذلك فقد ظل حائرا قلقا يفكر فى أمرها تفكيرا يمتزج فيه الخير والشر ، اليأس والأمل ، القسوة والإشفاق ، وإن كان قد شعر بقلبه ينتفض من جديد استفاقة الحياة ، ورأى زهور الأمل تنمو وترف على حواف المجرى الجاف

الذى تدفقت فيه منذ أعوام عواطفهما وأمانيهما المشتركة

وظل فى حيرته حتى وصلته منها رسالة تقول فيها « أنتم الرجال تظلموننا كثيرا حتى تتهموننا بالفجور والغدر والخيانة وتقلب الأهواء ، ولو اتهمتمونا بالضعف والجهل وقلة الحيلة لكنتم أقرب إلى الحق والواقع

أنتم — وأنا لا أعنيك أنت شخصيا ولو كنت أعنيك لما كتبت لك هذا الكتاب — تشاركوننا فى الجرم منذ اللحظة الأولى وفى النهاية حتى اللحظة الأخيرة ، تمهدون لنا الطريق وتحرضوننا على سلوكه فى أول لحظة تبدو فيها من أى واحدة منا بارقة رضا وتنالون بغيتكم ثم تذهبون إلى غير عودة مخلفين لنا الندم والألم والذل والهوان ...

لماذا بالله ؟ ألم تسأل نفسك هذا السؤال ؟ أنت الرقيق القلب العطوف الذى يفهم معنى الصفاء والإخلاص . لاشك أنك فعلت ، كيف أجبت نفسك إذن ؟ إذا كنت قد أجبتها إجابة صادقة صريحة ترضى الله والناس فلاشك أنك ستعذرنى فى مااقترفت فى حقك من إثم . لقد كنت جاهلة ولم يكن الذنب ذنبى ، وسبحان الذى لايضل ولا يخطىء ... والذى يقبل التوبة

إن التى تكتب إليك امرأة لم تلق فى حياتها ناصحا أو شفيقا ، ولم تجد من العناية والتوجيه ما يفتح عينيها على حقائق الحياة بل ما يسلمها إلى الطيش والحماقة . امرأة لم يعلمها إلا الألم وحده ولم تفتح عينيها إلا التجارب المرة القاسية ، فأستحلفك بالله ألا تسمينى خائنة بل قل إننى كنت جاهلة أو طائشة . لقد غرر بى الرجال ودفعوا بى فى الطريق الشائك الوعر وخدعونى مرات ومنهم تعلمت اللهو والخداع . لقد عشت حياتى كلها فى الظلام وكنت أنت الكوكب الوحيد الذى أشرق فى أفق حياتى ثم غاب قبل أن أهتدى إليه . فلما فطنت وأدركت تقت إلى النور وإليك إذ لم يكن هنالك من يستطيع أن يبدد ظلام قلبى ويهدينى إلى النور إلا أنت . اشتقت إليك كما يشتاق الأعمى إلى الإبصار ، وتذكرت مسلكى معك فندمت وتألمت وعرفت أننى كنت ضالة . لقد أحببتك رغم إرادتى فى الوقت الذى انصرفت عنى لأنك أنت وحدك علمتنى قدسية الحب وفتحت قلبى للمرة الأولى وملأته عواطف حب صادقة وعلمتنى مالم أكن أعلم ، ولولاك لعشت مؤمنة أن اللهو والغش والخداع هو الحب ولبقيت قانعة بحياتى التافهة المكدرة ، ولكننى أعيش الآن معذبة لأننى أدركت ما هو الحب ولا أستطيع الحصول عليه ...

والفضل لك أو الذنب ذنبك

وقد مرت بي عشرات التجارب بعد أن جانبتني ، وكانت كل تجربة تذكرني بك وتمنحني جديدا وتزيدني حبا واحتراما لك وتقديسا لذكرياتك ، وظل كل أملي أن أعثر عليك يوما لأركع بين يديك نادمة وأسفانة ، فأنا نفسي أتوب تذكرك في وجودي أيها العزيز ! إنني الآن امرأة صهرتها وطهرتها التجارب ولا تمت إلى ماضيها بصلة ، وكلانا ما زال في ربيع شبابه فلا تيأس ولا تتشاءم »

وحددت في رسالتها مكانا وموعدا للقاء قريب

والتقيا في بقعة هادئة من الشاطئ ، وفي هذه المرة انهارت مقاومة رأفت تماما وأخذ يقص عليها كل ما حدث له منذ اللحظة التي قرر فيها أن يقاطعها ، ورغبته الطاغية في الانتقام والتشفي منها ، واستمعت هي صامتة ووجهها ينطق بما تحس من ألم وندم . وبعد أن فرغ من حديثه أخذت هي تقص عليه ما لاقت في دنيا الرجال من محن ومآسي خسرت فيها كل شيء ولم تكسب إلا الحسرة والدرس ، وكيف تبدلت أفكارها وعواطفها وتغيرت نظرتها في حياتها الحاضرة ، وذكرت له أنها تستطيع أن تعيش عيشة المرأة الغامرة والمستهترة ولكنها لا تريد … إنها تطمع في لون آخر من الحياة البسيطة يتوفر فيه الهناء الساذج والرخاء والسلام فهل لا يمنحها هذه الحياة المرجوة ؟

وظلا يتعاتبان ويتشاوران حتى تقدم الليل ، إنها تدرك تماما ما يعانيه من عسر وفاقة ولكنها ستشاركه جهاد الحياة ، إنها ستعمل وتؤدى عملها وتضيف إيرادها إلى إيراده ، وسينتقل هو إلى مسكنها الكامل الأثاث ليعيشا معا في ظل زواج موفق هنيء ، إنها ستمنحه حب قلبها وإخلاصها كل حياتها ، وفي الوقت نفسه يبحث هو عن عمل جديد يتفق مع كفايته ومستواه

ولم يكد رأفت يصدق وهو يستمع إلى حديثها أنها هي نفس الفتاة التي خدعته وأسلمته إلى طريق الانحدار وظلت طوال السنين هدفا لسخطه واحتقاره في حين كان هو مطمح أشواقها وموضع اعزازها وإكبارها ، وأحس أنها ليست حطام امرأة كما قال لنفسه عندما قصت عليه قصتها ، وتاق إلى أن يكفر عن نياته السيئة التي ظل يختزنها في قلبه ويغذيها من حقده عدة سنوات

والتقيا في تلك الليلة بعد أن اتفقا ، وكان رأفت يشعر وهو يشد على يدها في حرارة أنه يبعث من جديد تجرى في عروقه دماء جديدة تمده بالنشاط والحيوية والعزم والآمال الكبار ، وخيل إليه أن كل ما قاساه من آلام وهوان لم يكن إلا حلما مزعجا بين

المربية

[illegible]

بقلم الأستاذ [illegible]

لم يكن بالحجرة سوى الفتاتين ، وقد أطفئت الأنوار ولم يبق في الظلام سوى بصيص من الضوء كان ينبعث من الفراشين . وهدأت أنفاس الفتاتين حتى كان يظن أنهما نائمتان

وسرى همس متهدج رقيق من أحد الفراشين ، وكان المتحدث هو الفتاة التي بلغت الثانية عشرة

فسألتها أختها التي كانت تكبرها بسنة قائلة « ماذا تقولين ؟ »

قالت : إني جد مسرورة لأنك لا تزالين مستيقظة فإن لدى ما أود أن أقوله لك

ولم يكن هناك جواب بالألفاظ ، وإنما تحرك شيء من الفراش الآخر ، وكانت الفتاة الكبرى قد جلست منتظرة وعيناها تتألقان في الضوء الواهن

قالت الصغرى : انظري هنا فهذا ما أريد أن أخبرك به ولكن قبل كل شيء هل لحظت أحمر

يقظتين هنيئتين

وكان يفكر في حياته طوال السنوات الخمس الماضية وما انحدر إليه من تدهور وإسفاف فيحس كأنه يفكر في أمر شخص غريب لا يكاد يمت إليه إلا بأوهى الصلات ، وانصرف تفكيره كله إلى المستقبل الذي يريد أن يحقق في أيامه ما يعوضه من الماضي الضائع

والتقيا بعد ذلك مرات وكان يحدثها في بساطته القديمة المحببة عما يأمل ويتمنى فتجيبه بأن أمانيه وآماله هي ما يخفق به قلبها ويحلم به ليل نهار

وتزوجا بعد أمد قصير ...

وبرت أمينة بوعدها وعهودها ، وبمعاونة على الحياة الطيبة وعاشا معا كطفلين ساذجين فرحين بالحياة ، واستطاع رأفت أن يجد عملا جديدا مربحا ومريحا ، وما لبثت أمينة أن استقالت من عملها لتتوفر على شؤون منزلها ، وبعد عام من زواجهما رزقا فتاة أطلقا عليها الاسم الذي طاف بخيال أمينة منذ أن شعرت بأعراض الحمل وهو « إنصاف »

نصري عطا الله

شيئاً يثير الضحك في سلوك الآنسة منى !

فقالت الكبرى بعد قليل من الصمت « نعم لقد لحظت شيئاً ، ولكنني لا أدرى ما هو ، فهى أقل تدقيقاً مما كانت ، فمنذ يومين وأنا لا أؤدى التمرينات المطلوبة ، ومع ذلك لم توجه لى أى لوم . ولست أدرى ماذا حدث ، ولكنها فيما يبدو أصبحت لا تعنى بنا ، فهى تقعد منفردة بنفسها ولا تشاركنا فى ألعابنا كما كانت تفعل من قبل

فأجابت الصغرى : أحسبها حزينة ، وهى تحاول إخفاء حزنها ، وهى لا تعزف على البيان الآن »

ومرت فترة سكوت ، واستأنفت بعدها الفتاة الكبرى الحديث قائلة « لقد ذكرت أن لديك شيئاً تودين أن تفضى إلى به »

فقالت الصغرى : نعم ، ولكن عليك أن تحتفظى به لنفسك ولا تقولى عنه كلمة واحدة لوالدتنا أو لصديقاتك لولى »

فأجابت الكبرى فى غضب « إنى بطبيعة الحال لا أفعل ذلك . فاسترسلى فى حديثك

قالت الصغرى :

« بعد أن ذهبنا إلى الفراش أدركت فجأة أنى لم أقل للآنسة منى مساء الخير ، فارتديت ملابس حذائى واسترقت الخطى إلى حجرتها قاصدة مفاجأتها ، ولما فتحت الباب بهدوء وظننت لحظة أنها غير موجودة بالحجرة ، وبرغم ضوء الحجرة لم أستطع رؤيتها ، وفجأة تملكتنى الدهشة ، فقد سمعت نحيبا ورأيتها راقدة فوق فراشها بملابسها وقد أخفت رأسها بين الوسائد ، وكانت تبكى بكاء شديدا جعلنى أستشعر الألم ، ولكنها لم تلحظنى ، وتسللت من الحجرة وأقفلت الباب برفق وهون ولبثت لحظة فى خارج الحجرة لأنى كدت أعجز عن المشى ، وظللت أسمع نحيبها من خلال الباب ، ثم عدت أدراجى »

ثم لاذت الفتاتان بالصمت لحظة ، ثم قالت الكبرى متنهدة « يالها من مسكينة ! »

وعادتا كلتاهما إلى الصمت

وواصلت الصغرى الحديث قائلة : « إنى فى دهشة من أمرها ولست أدرى ما الذى أبكاها ، ولم تحدث مشاجرة أخيرا لأن الوالدة قد كفت عن تعنيفها كما كانت تفعل دائما ، وإنى واثقة من أننا لم نتعبها فما سبب بكائها ؟ »

فقالت الكبرى « أحسبنى أستطيع أن أحزر ذلك »

فقالت الصغرى :

حسن ، اذكرى ما عندك إذاً !

فترددت الكبرى فى الرد ، ولكنها قالت أخيرا « أعتقد أنها تحب »

ففزعت الفتاة الصغرى وقالت « تحب ؟

فأجابت الكبرى : « بطبيعة الحال أقصد ، وهو يحبها ، فى خلال السنوات الثلاث التى قضاها معنا لم يشاركنا فى نزهتنا إلا منذ شهرين أو ثلاثة أشهر . والآن لا يفوته أن يصحبنا يوما من الأيام ، وهو لم يكد يلحظنا إلا بعد قدوم الآنسة مان ، وهو الآن ما ينفك يحوم حولنا ، وفى كل مرة نخرج نصادفه فى الميدان أو فى الحدائق أو فى أى مكان آخر تصحبنا إليه الآنسة مان ، وأنا واثقة أنك لحظت ذلك ؟ »

فأجابت الصغرى « نعم ، لحظته بالضرورة ولكنى ظننت ... »

ولم تتم جملتها

فقالت أختها : « إنى لم أشأ أن أشغل بالى بالموضوع فى أول الأمر ، ولكنى بعد حين تأكدت أنه يقصدنا سويا »

وبعد صمت طويل أخذت الفتاتان تقلبان فيه الأمر على وجوهه ، كانت الصغرى هى التى بدأت بالخروج من الصمت وعاودت الحديث قائلة :

« ولكن إذا كان الأمر كذلك فلم يحك ؟ إنه مستهام بها ، وأنا دائما أظن أنه مما يسر الإنسان أن يكون محبوبا ؟ »

فقالت الكبرى فى لين ورقة : « إنى أرى ذلك ، ولا أستطيع أن أتبين الأمر » ثم أرسلت هذه الكلمات فى نبرة يخالطها اللوم « يالها من مسكينة هذه الآنسة مان !! »

وانتهى حديثهما فى تلك الليلة

ولم تشيرا إلى هذا الحديث فى الصباح ، ولكن كل واحدة منهما كانت تعلم أن أفكار الأخرى كثيرة الدوران حول هذا الموضوع ، ولم تعمد إحداهما النظر فى عين الأخرى لتستوضح ذلك ، ولكنهما كانتا تتبادلان النظرات حينما تقع عيناهما على الغريبة ، وكانتا على الطعام تراقبان ابن عمهما أوتو كأنه شخص غريب ، ولم توجها إليه حديثا ، ولكنهما كانتا تختلسان النظر إليه وتحاولان أن تكتشفا هل هناك تفاهم خفى بينه وبين الآنسة مان . ولم تحفلا بأسباب التسلية لأنهما كانتا لا تفكران فى شئ سوى هذا اللغز الخطير . وفى المساء سألت إحداهما الأخرى وهى تحاول أن تتظاهر بعدم الاكتراث :

« ألا تلاحظين شيئا جديدا اليوم ؟ »

فأجابت أختها باختصار « كلا »

والواقع أنهما كانتا تتحاشيان الخوض فى الموضوع ، وظل الحال على هذا المنوال عدة أيام ، وكانت الفتاتان لا تكفان عن الملاحظة فى صمت وقد استولى عليهما القلق وانشغال البال . ولكنهما كانتا تشعران بأنهما قريبتان من كشف سر عجيب

وأخيرا لحظت الفتاة الصغرى فى أثناء

العشاء أن المربية أشارت إلى أوتو إشارة لا يكاد يدركها أحد ، وأنه أحنى رأسه ردا على هذه الإشارة ، فانتفضت من الانفعال وركلت أختها ركلة خفيفة تحت غطاء المائدة ، فنظرت الكبرى إليها مستفسرة فردت عليها بنظرة ذات معنى . وظلت الفتاتان على أحر من الجمر حتى انتهى تناول الطعام . وفى عقب انتهائه قالت المربية للفتاتين :

« اذهبا إلى حجرة الدراسة وابحثا عن عمل تؤديانه فإنى أشعر بصداع وسأستلقى على الفراش نصف ساعة »

وفى اللحظة التى وجدت الفتاتان أنهما فى عزلة انفجرت الصغرى قائلة : « سترين إن أوتو ذاهب إلى غرفتها ! »

فقالت الكبرى « بالطبع ، ومن أجل ذلك أرسلتنا إلى هنا »

فقالت أختها : « علينا أن نتسمع خارج الباب »

فأجابت الكبرى « ولكن افرضى أن أحداً يجئ ... »

فسألتها أختها « من ؟ »

فأجابتها قائلة : « الوالدة »

فقالت الصغرى متفزعة « سيكون ذلك أمراً فظيعا »

فأشارت أختها قائلة « راقبى الممر وأنا أتسمع »

فقطبت الصغرى استياءها وقالت : « ولكنك فى هذه الحالة لا تخبريننى فى كل شئ »

فقالت أختها « لا تخافى »

فقالت الصغرى : « أنت جدة ...

فقالت الكبرى : « أقسم لك أنى [illegible] وعليك أن تسعلى إذا سمعت صوت قادم »

وانتظرتا فى الممر وقلباهما يخفقان من الانفعال ، فلما حدث [illegible] وقع أقدام فوصلت إلى حجرة الدراسة المظلمة ، وقد كان القادم أوتو نفسه ، وقد قصد حجرة الآنسة مارى وأغلق الباب من ورائه . فتسللت الفتاة الكبرى إلى الموضع الذى اختارته وتسمعت من ثقب الباب وهى لا تكاد تجرؤ على التنفس . وأخذت الأخرى تنظر إليها نظرات تنم على الحسد ، ودفعها حب الاستطلاع إلى المضى حثيثا نحو الباب ؛ ولكن أختها صدت لها وأشارت إليها فى غضب لترجع إلى مكانها وتراقب فى آخر الممر . وظلتا منتظرتين بضع دقائق بدت للفتاة الصغرى كأنها الأبدية . وكانت تشعر بحمى القلق تتمشى فى بدنها وكأنها كانت واقفة على مثل جمر الغضى . وبصعوبة استطاعت أن تكف غرب دموعها لأن أختها كانت تسمع كل شئ ، وأخيراً سمعت

صوتاً فاستولى عليها الخوف وسملت؛ وهربت الفتاتان إلى حجرة الدراسة . ومرت لحظة قبل أن يواتيهما النفس لتتحدثا ، وقالت الصغرى غاضبة :

« حدثيني إذن عن كل ماحدث »

فبدت علائم الحيرة على وجه الفتاة الكبرى وقالت كأنها تخاطب نفسها :

« إني لا أفهم »

فقالت الصغرى : « ماذا ؟ »

فأجابتها أختها « إنه شيء يتجاوز المألوف »

فقالت الصغرى غاضبة : « ماذا ؟ ماذا ؟ »

فبذلت الكبرى مجهوداً وهي تقول :

« لقد كان شيئاً يتجاوز المألوف ويختلف كل الاختلاف عما كنت أتوقعه ، وأظن أنه حينما دخل الحجرة أراد أن يطوقها بذراعيه أو أن يقبلها لأنها قالت له : دع ذلك الآن لأن لدي شيئاً خطيراً أريد أن أخبرك به . ولم أستطع أن أرى شيئاً لأن المفتاح كان معترضاً ، ولكني كنت أستطيع السمع جيداً ، وسألها أوتو في نبرة لم أسمعها منه قط قبل ذلك قائلاً : ما الخبر ؟ وأنت يا أختي تعرفين كيف يتحدث في العادة بصوت عال وفي فجاجة ، ولكني واثقة من أنه كان خائفاً ، ولا بد أنها لحظت أنه يخدعها لأن كل ما دلته هو : أظن أنك تعرف ما فيه الكفاية ؟ فقال : أبداً . فقالت في صوت حزين : إذا كان الأمر كذلك فلماذا تناءيت عني ؟ ففي خلال أسبوع لم أكد أسمع منك كلمة ، وأراك تتجنبني جهد طاقتك ، وقد ابتعدت عن الفتاتين وأمسكت عن لقائنا في الحديقة ، فهل نبذت مجاراة الاهتمام بي والعناية بأمري ؟ آه إنك تعلم جيداً لماذا تتراجع إلى الوراء هكذا ... فظل صامتاً لحظة ثم قال : إنك لا ريب تعرفين اقتراب ميعاد الامتحان ، وليس لدي وقت أضيعه ، فماذا أستطيع أن أفعل ؟ وأخذت تبكي وقالت له في رقة وهي تنشج : قل الحق يا أوتو ؛ ما الذي صنعت حتى تعاملني هذه المعاملة ؟ إني لم أطالبك بشيء ، ولكن يلزم أن نتحدث في صراحة ، وملامحك تظهر لي بوضوح أنك تعلم كل شيء عن ... »

وأخذت الفتاة تنتفض ولم تستطع أن تتم جملتها

فقطعت منها أختها وسألتها :

كل شيء عماذا ؟

فقالت : كل شيء عن الطفل !

فقاطعتها الصغرى قائلة : طفلهما ! طفل ! هذا مستحيل

فقالت الكبرى : هذا ما قالته

فقالت أختها : لا يمكن أن تكوني قد أحسنت السمع

فأجابت الكبرى : ولكني سمعت جيداً ، وإني متأكدة مما سمعت ، وقد أعاد هو قائلا « طفلنا » وبعد هنيهة استرسلت تقول : وماذا نصنع الآن ؟ وحينئذ ...

قالت الصغرى : وحينئذ ماذا ؟

فأجابت أختها : حينئذ سمعت فابتعدت عن الباب

فارتبكت الصغرى ارتباكا شديداً ، والتبس عليها الأمر ثم قالت :

ولكن لا يمكن أن يكون لها طفل ، وأين يكون هذا الطفل ؟

فقالت أختها : لا أعرف شيئاً عن هذا الموضوع أكثر مما تعرفين

فقالت الصغرى : ربما كان هذا الطفل في منزلها ، ووالدتنا بطبيعة الحال لا تسمح لها بإحضاره إلى هنا ، ولا بد أن هذا هو سبب حزنها

وأجابت الكبرى : آه . هذا كلام فارغ إنها لم تعرف أونو إذن !

وذهب بهما التفكير كل مذهب ، وعادت الصغرى تقول : طفل ! هذا أمر مستحيل . كيف يمكن أن يكون لها طفل؟ إنها غير متزوجة ، ولا أطفال لغير المتزوجين

فقالت أختها : ربما كانت متزوجة

وردت الصغرى قائلة : لا تكوني غبية، إنها لم تتزوج أونو

فقالت الكبرى : حسن ، إذن ... ؟

وأخذت كل منهما تحدق في الأخرى

وقالت إحداهن في حزن : إنها مسكينة آنسنا ملن

وكان يبدو دائماً أنهما تعودان إلى ترديد هذه الكلمة ، وكأنها كانت تأوه عطف ، ولكن شعلة الاستطلاع كانت تعود بعد ذلك إلى التوهج

وقالت الصغرى : أتظنينها بنتا أو ابنا ؟

وأجابتها أختها : كيف أستطيع علم ذلك.

فقالت الصغرى : وماذا تقولين إذا سألتها عن ذلك في تلطف ولباقة ؟

فزجرتها أختها قائلة : أوه ! اتركي الصمت !

فسألت الصغرى : ولم ذلك ؟ إنها تعاملنا بكثير من الرعاية والعناية

فقالت أختها : وما فائدة ذلك ؟ إنهم يخفون عنا أمثال هذه الأشياء ، وإذا تحدثوا عنها وجئنا إلى الحجرة ، فإنهم يسكتون عن الحديث ويشرعون في التكلم معنا بكلام فارغ كأننا لا نزال أطفالا ، وذلك بالرغم من أنني في الثالثة عشرة من عمري ، فما فائدة سؤالها لتخدعنا وتكذبنا ؟

فقالت الصغرى : ولكني أريد أن أعرف

فأجابتها أختها : وأنا كذلك توافقة إلى

المرفقة، والذى يصادق هو أن أوتو ادعى أنه لا يعرف شيئاً عن ذلك، وحينما يكون للإنسان طفل لا بد له أن يعلم ذلك، كما لا بد له أن يعلم أن له أباً وأماً

فقالت الصغرى: أوه! إنه كان يدعى ذلك، ومن عادته الكذب!

فأجابت الكبرى: ولكنه لا يكذب فى مثل هذه الأمور، لا سيما بعد ما كشفنا بحديث

واعترض حديثهما مجىء المربية. وتظاهرتا بالجد فى العمل، ولم يغب عنهما ملاحظة احمرار وجنتيها وما دل عليه صوتها من جيشان العاطفة، وجلستا فى هدوء وصمت وكانتا تنظران إليها نظرات احترام، ولم تكفا عن التفكير فى أن لها طفلا وأنها حزينة من أجل ذلك، وبغتة ألم بهما الحزن.

وعند تناول الغداء فى اليوم التالى علمتا بهذه الأنباء المزعجة، وهى أن أوتو سيغادر المنزل، فقد أخبر عمه أن عليه أن يبذل جهداً كبيراً فى التحصيل للامتحان، وأنه لا يجد فى المنزل الهدوء الكافى لذلك، وأنه سيقيم فى مسكن عزب هذا مدة الشهرين القادمين.

وأثار ذلك مشاعر الفتاتين، وأدركتا أن الرحيل الذى عزم عليه وثيق الصلة بحديث اليوم السابق، وعرفتا بالغريزة أن هذا الرحيل هو فرار الجبان. ولما جاء أوتو ليودعهما أبى منهما إعراضاً وتجهماً، ورغم ذلك رافقتا توديعه للآنسة ماين، وقد صافحته فى هدوء ولكن شفتيها اختلجتا

وبدأت تتبدل أحوال الفتاتين فى تلك الأيام، فقد قل ضحكهما، وأصبحتا لا تستشعران السرور فى شىء، وبدا عليهما الحزن، وكانتا تتنقلان فى أرجاء المنزل وقد احتواهما القلق، وغلب عليهما سوء الظن بمن كان حولهما من الكبار، واعتقدتا أن وراء أبسط الكلمات التى تسمعانها خدعة وأنها تنطوى على أكذوبة، وكانتا فى رقابتهما الدائمة كالظلال الخاطفة تتسمعان خلف الأبواب وتحاولان النفاذ من الشبكة التى تحجب عنهما السر الحق، أو على الأقل أن تنظرا خلال خيوطها بنظرة إلى عالم الواقع، وقد فقدتا يقين الطفولة وغفلتها الناعمة، وعلاوة على ذلك فقد كانتا على الدوام تنتظران كشفاً جديداً وتخشيان أن يفوتهما ذلك، وقد علمهما المخادعة جو الخداع والمكر الذى كانتا تعيشان فيه، وكانتا كلما اقترب منهما والداهما تظاهرتا بالانهماك فى العمل، وزاد ما بينهما قرباً تحالفهما على مقاومة عالم الكبار، وكانتا حينما يملؤهما شعورهما بالجهل والعجز يتملكهما دافع حب الملاطفة والملاينة

ويجعلهما تتعانقان . وفى بعض الأحيان كانت تنهمل دموعهما . وهكذا انتقلت حياتهما إلى مرحلة خطيرة بدون سبب ظاهر

وبين متاعبهما الكثيرة كان هناك شئ أسوأ وقعاً فى نفسيهما من كل شئ آخر ، وهدمهما لباقتهما دون أن تتبادلا الأفكار إلى عقدهما العزم على أن تجنبا الآنسة مان التاعب جهد الطاقة لما تعانيه من حزن ، فجدتا فى التحصيل وتعاونتا فى الدروس والتزمتا الهدوء وأحسنتا التصرف وحاولتا أن تسبقا الآنسة مان إلى رغباتها ، ولكن كان يبدو لهما أن المربية لم تلحظ ذلك ، وكان هذا أشد ما يثير ألمهما . ولقد كانت غير مكترثة ، وحينما كانت تخاطبها إحداهما كانت تجفل كالذى استطير نومه ، وكان يبدو أن نظرتها لا ترتد إليهما إلا بعد أن تسير مسافات شاسعة ، وكانت تقضى ساعات وهى جالسة سابحة فى الأحلام ، وكانت الفتاتان تسيران على أطراف أصابعهما خشية إزعاجها لأنهما كانتا تتخيلانها مفكرة فى طفلها الغائب ، وقد جعلتهما أنوثتهما المستيقظة أشد عطفا مما كانتا قبل على المربية التى ألانت لهما كنفها فى تلك الآونة .

والآنسة مان التى كانت دائمة المرح والتى كانت فى بعض الأحيان يغلب عليها القليل من الصلف قد أصبحت أكثر تفكيرا وأشد رعاية وتبصرا . وشعرت الفتاتان بأن أعمالها كلها تنم على حزن خفى ، ولم تبصراها باكية ولكن جفونها كانت قريحة ، وكان من الواضح أنها تريد أن تحتفظ بمتاعبها فلا تفضى بها إلى أحد ، وكان يحزنهما ويحز فى نفسيهما عجزها عن مساعدتها

وفى ذات يوم اتجهت المربية نحو النافذة لتمسح دموع عينها فتشجعت الفتاة الصغرى وأمسكت بيدها قائلة « إنك جد محزونة يا مس مان ، وليس هناك خطأ من ناحيتنا فهل الأمر كذلك ؟ »

فنظرت الآنسة مان إلى الفتاة نظرة عطف وربتت على شعرها وقالت :

« كلا يا عزيزتى فليس هناك أى خطأ من ناحيتك » وقبلت الفتاة فى جبينها

وهكذا واصلت الفتاتان الرقابة ، ودخلت إحداهما حجرة الجلوس على غير انتظار وسمعت كلمة أو كلمتين لم تقصد أن تسمعهما ، وغير والداها موضوع الحديث ؛ ولكنها كانت قد سمعت ما يكفى لجعلها تفكر

كانت الوالدة تقول « نعم لقد استرعى نظرى نفس الشئ وسأتحدث إليها فى ذلك »

وفى أول الأمر وضعت الفتاة الصغرى القلنسوة على رأسها وانطلقت لتستشير أختها فقالت

« حول ماذا تظنين هذه الضجة المثارة »

ولكنهما لحظتا عند الغداء كيف كان والدهما ووالدتهما يوجهان النظرات الفاحصة إلى المربية ، وكيف كانا بعد ذلك يتبادلان النظرات ذوات المعانى ، وبعد الغداء قالت الوالدة للآنسة مان :

« هل تسمحين بالحضور إلى حجرتى ؟ إنى أود أن أتحدث إليك »

فاهتاج ذلك الفتاتين لتوقعهما حدوث شىء ، وقد ألفتا استراق السمع وسارتا لا تخجلان منه ، وكان مناط تفكيرهما هو علم ما خبىء عنهما . وبادرتا إلى الوقوف خلف الباب بعد دخول الآنسة مان مباشرة ونسمعنا ، ولكنهما لم تسمعا سوى همسات من المحادثة ، فهل يظلان فى جهلهما ؟ ولكن لم يلبث أن ارتفع أحد الصوتين ، وقالت الأم غاضبة

« أتحسبين أننا كلنا عميا لا نلحظ حالتك ؟ إن هذا يلقى ضوءاً على تصورك لواجباتك كمربية ، وإنى أرتجف كلما فكرت فى أننى عهدت بربية بناتى لمثل هاتين اليدين ، ولا نزاع فى أنك أهملتهما إهمالا شنيعا »

وبدا أن المربية اعترضت على ذلك ولكنها كانت تتحدث فى هدوء فلم تستطع الفتاتان سماع حديثها

وقالت أمهما « تكلمى ، تكلمى ! كل امرأة خليعة تجد أعذارا ، وامرأة مثلك تقدم نفسها لأول قادم دون أن تفكر فى العواقب ، والله يعين ! ومن الكبائر أن تصير فاجرة مثلك مربية ، وما أحسبك تخدعين نفسك فتحسبى أننى أسمح ببقائك فى المنزل بعد ذلك ؟ »

فارتجفت الفتاتان وهما تصغيان ، ولم تستطيعا أن تفهما فهما كاملا ، ولكن اللهجة التى كانت تتحدث بها أمهما بدت لهما فظيعة مستنكرة ، وكان جواب الآنسة مان البكاء والتشنج ، فانحدرت الدموع من عيون الفتاتين ، وازداد غضب الأم حدة وتأججا فقالت :

« أكل ما تستطيعينه هو البكاء والتحيب ! إن دموعك لا تؤثر فى ، وليس فى نفسى شىء من العطف على أمثالك ، وليس من شأنى أن أعنى بما سيصيبك وأنت ، من جر ذلك تعرفين أين تلتمسين المساعدة فيما شأنك الخاص ، وكل ما أعلمه هو أنك لن تمكثى فى منزلى يوما آخر » .

وكان البكاء والتحيب لا يزالان جواب الآنسة مان الوحيد ، ولم تسمعا من قبل انتحاباً على هذه الطريقة . وكان شعورهما يوحى إليهما أن من يبكى مثل هذا البكاء لا يمكن أن يكون مذنباً ، وانتظرت والدتهما قليلا فى صمت ثم قالت بحدة :

« هذا هو كل ما أريد أن أقوله لك ، فاجمعى متاعك بعد ظهر اليوم واحضرى إلى فى صباح الغد لتأخذى مرتبك ، وتستطيعين الآن أن تنصرفى » .

وفرت الفتاتان إلى حجرتهما ، فماذا عكن أن يكون قد حدث ؟ وما معنى هذه العاصفة الفاجئة ؟ وفى هذه الفمة المظلمة من أمرهما أخذ يتبين لهما ضوء الحقيقة واهياً ، ولأول مرة كان شعورهما شعور الثائر على والديهما .

قالت الكبرى « ألم يكن من القسوة البالغة أن تخاطبها والدتى بمثل هذا الأسلوب ؟ » وأخاف هذا النقد الصريح الفتاة الصغرى بعض الخوف فقالت متعثرة :

« ولكن ... ولكن ... نحن لا نعرف ما صنعت » .

فقالت الكبرى « إنى واثقة من أنه لم يقع خطأ ، والآنسة مان لا يمكن أن تخطىء ، والوالدة لا تعرفها كما نعرفها نحن »

فقالت الصغرى « ألم تكن طريقتها فى البكاء فظيعة ؟ لقد تركت فى نفسى شعوراً سيئاً » .

فقالت الكبرى : « نعم كانت فظيعة ، ولكن الأسلوب الذى كانت تصيح به والدتى كان مستنكراً معيباً ! »

ودقت الأرض برجليها وفاضت الدموع من عينيها .

وفى هذه اللحظة جاءت الآنسة مان وقد بدا عليها الإعياء وخاطبتهما قائلة : لدى أعمال كثيرة بعد ظهر اليوم ، وإنى أعرف أنكما ستحسنان السلوك إذا تركتكما لنفسيكما ، وسنمضى المساء معا .

واستدارت وغادرت الحجرة دون أن تلحظ نظرات الفتاتين اليائسة .

وقالت الكبرى لأختها : أرأيت احمرار جفنيها ؟ إنى لا أفهم لماذا قست عليها والدتى كل هذه القسوة ؟

وأجابت الصغرى : مسكينة آنستنا مان !

وهكذا عاد التحسر لحالة الآنسة مان فى صوت يعترضه تدفق الدموع ، وجاءت الوالدة تسألهما أتريدان أن يذهبا معها للنزهة فأجابتا : لا نريد اليوم يا والدتنا .

والواقع أنهما كانتا خائفتين من والدتهما وكانتا ناقمتين لأنها لم تخبرهما بأنها ستطرد الآنسة مان ، وكان الأنسب لحالتهما النفسية تركهما لتخلوا بنفسيهما ، وكانتا تضطربان فى نواحى الحجرة كالعصافير الحبيسة فى القفص وقد ضرستهما بأنيابه ووطأتهما بمنسمه جو الريب والصمت ، وأرادتا أن تعرفا هل تستطيعان أن تذهبا إلى الآنسة مان ، وتسألاها عن جلية الخبر ، وتخبراه أنهما

تريان أن والدتهما قد أسرفت فى الإساءة إليها ، ولكنهما كانتا تخشيان مضايقتها ، وفضلا عن ذلك فإنهما كانتا خجلتين إذ كيف يتسنى لهما الحديث عن أمر كل ما تعلمانه عنه مستمد من الأحاديث المسترقة ؟

وكان عليهما أن تقضيا فترة ما بعد الظهر الطويلة المملة فى خلوة بنفسيهما مهمومتين حزينتين تبكيان من الحين إلى الحين ، مستعيدتين فى ذاكرتيهما ما سمعتاه خلال الباب المقفل وغضب والدتهما القاسى ، وتحيب الآنسة مان اليائس .

وفى المساء جاءت المربية لتراهما ولكنها اكتفت بتحيتهما وبينما كانت تغادر الحجرة تشوقت الفتاتان إلى الخروج من الصمت ولكنهما لم تستطيعا أن تنطقا بكلمة . واستدارت الآنسة مان عند الباب كأنما دعاها تطلعهما الصامت وكانت عيناها تلتمعان ببريق العاطفة الثائرة ، وعانقت الفتاتين اللتين فاضت دموعهما وعلا بكاؤهما ، وأعادت الآنسة مان تقبيلهما وأسرعت فى الانصراف

وكان من الواضح للفتاتين أن هذا هو الوداع الأخير

فبكت إحداهما قائلة « لن نراها بعد الآن »

وقالت الأخرى « إنى أعرف ، فعند عودتنا من المدرسة غداً تكون قد ذهبت »

فقالت الصغرى « ربما استطعنا زيارتها بعد حين من الزمن وسترينا طفلها »

فقالت الكبرى « نعم ، إنها ستظل دائما عزيزة علينا »

وعادت الصغرى تقول « مسكينة آنستنا مان ! »

وبدا لهما أن هذه الكلمة الحزينة تلوح لهما بما يضمره لهما الغيب

وقالت الكبرى « لا أستطيع أن أتصور كيف نستطيع البقاء بدونها ! »

فأجابت أختها « إنى لا أطيق قبول مربية بعدها »

ووافقتها الكبرى قائلة « ولا أنا كذلك »

وقالت الصغرى « لن نجد مثيلا للآنسة مان ، وفضلا عن ذلك ... »

ولم تجترئ على إتمام جملتها ، وشعورهما الباطن بالأنوثة جعلهما تحسان نوعا من الاحترام للآنسة مان منذ عرفتا أن لها طفلا ، وكان هذا على الدوام فى فكرهما وقد أثر فيهما تأثيرا بالغا

قالت الكبرى « أقول ... ؟ »

فقالت أختها « تقولين ماذا ؟ »

فقالت الكبرى « لقد خطرت لى فكرة ، ألا نستطيع أن نصنع صنيعا جميلا للآنسة مان قبل أن تنصرف لنريها تعلقنا بها ونعرفها أننا لسنا مثل الوالدة ؟ وهل تنضمين إلى

فى ذلك ؟ »

فأجابت أختها « بكل تأكيد ! »

فقالت الكبرى « تعرفين شدة حبها للورود البيض ، فلنذهب فى صباح الغد ونشترى وردات بيضاء قبل ذهابنا إلى المدرسة ونضعها فى حجرتها »

فسألت الصغرى « ولكن متى نفعل ذلك ؟ »

فقالت أختها « بعد الرجوع من المدرسة »

فقالت الصغرى « لا فائدة من ذلك ، إنها ستكون قد ذهبت . اسمعى ، سأتسلل فى باكورة الصباح قبل الفطور وأحضرها إلى هنا ونحملها بعد ذلك إليها »

فقالت الكبرى « حسن جدا ، علينا أن نستيقظ مبكرتين »

ورجعت كل منهما إلى حصيلتها من النقود ، وسرها أنهما ستتمكنان من إظهار مدى حبهما للآنسة مان

وفى باكورة الصباح طرقتا باب الآنسة مان والورود فى أيديهما ، ولم تتلقيا ردا ، فظنتا أنها لا تزال نائمة فنظرتا من ثقب الباب ، ولكن الحجرة كانت خالية ولم ينم أحد فى الفراش ، ووجدتا على المنضدة رسالتين ، فاعترتهما الدهشة . فماذا حدث ؟

قالت الفتاة الكبرى « سأذهب توا إلى الوالدة »

وبدون أى أثر للخوف وفى تحد ظاهر جيهت والدتها بهذه الكلمات !

« أين الآنسة مان ؟ »

فقالت أمها « أظنها فى حجرتها »

فقالت الفتاة « ليس بحجرتها أحد وهى لم تذهب إلى فراشها ، ولا بد أنها غادرت المنزل فى الليلة الأخيرة ؛ فلماذا لم تقولى لنا شيئا عن هذا الموضوع ؟ »

ولم تكد الوالدة تلحظ لهجة التحدى ، حتى اصفر وجهها وقصدت إلى زوجها ، وذهب الزوج إلى حجرة الآنسة مان

ومكث بها هنيهة . وفى أثناء ذلك كانت الفتاتان تنظران إلى والدتهما نظرات غضب متجهم ، وبدا أنها عاجزة عن مواجهة هذه النظرات

وعاد والدهما أدراجه من حجرة الآنسة مان وفى يده خطاب مفتوح . وكان هو كذلك مهتاج العاطفة . وانسحب الوالدان إلى حجرتهما وتبادلا الحديث بصوت منخفض . وفى هذه المرة خافت الفتاتان من محاولة استراق السمع فإنهما لم تريا والدهما من قبل فى مثل هذا المنظر

ولما خرجت والدتهما من الحجرة رأتاها تبكى ، فأرادتا أن تسألاها ولكنها قالت لهما فى حدة « إذهبا إلى مدرستكما ، إنكما ستتأخران »

ولم تجدا بدا من الذهاب ، وظلتا ساعات فى حجرة الدراسة دون أن تصغيا لكلمة واحدة ، ثم انطلقتا إلى المنزل ، وهناك بدا أن فكرة رهيبة قد استولت على عقول من فى المنزل جميعا ، حتى الخدم كان منظرهم كئيبا ، وجاءت الوالدة لاستقبالهما وأخذت تتحدث إليهما بكلمات عبثت بتلاوتها

« إنكما لن تريا الآنسة مان بعد ذلك إنها ... » ولم تكمل الجملة فإن ما بدا على الفتاتين من مظاهر الغضب والتهديد جعل الوالدة لا تستطيع الكذب عليهما ، فتركتهما واحتمت بحجرتها

وفى عصر ذلك اليوم ظهر أوتو فى المنزل وكان أحد الخطابين موجها إليه وقد استدعى للحضور ، وكان هو كذلك قلقا ممتقع الوجه ولم يوجه إليه أحد كلاما ، وتحاشاه كل إنسان ، وأبصر الفتاتين جالستين فى إحدى زوايا الحجرة مهمومتين فذهب إليهما

فنظرتا إليه فى فزع وصاحتا به « لا تقترب منا ! »

فأخذ يتمشى هنا وهناك لحظة ثم اختفى ولم يتحدث أحد إلى الفتاتين ، ولم تتجاذبا هما أطراف الحديث ، وكانتا تتنقلان فى المنزل من حجرة إلى أخرى بغير غرض ، وتنظر كل واحدة منهما إلى وجه الأخرى الذى بللته الدموع حينما يتقاطع طريقاهما ، وعرفتا فى هذه الآونة كل شىء ، وعلمتا أنهما قد خدعتا ، وعرفتا إلى أى حد تصل الضعة بالناس . وفقدتا حبهما لوالديهما ، وأصبحتا لا تثقان بالوالد ولا بالوالدة ، ووثقتا من أنهما لن تثقا بأى إنسان بعد ذلك ، وثقل على كاهليهما الضعيفين الصغيرين حمل الحياة ، وتركتا خلفهما طفولتهما السعيدة التى لم تعرف الهم ، وانتظرتهما المخاوف المجهولة . وكان من وراء تفكيرهما إدراك المعنى الكامل لكل ما حدث ؛ ولكنهما كانتا تحاران عن محتملاته المروعة ، وقربت ما بينهما العزلة ولكنها كانت صحبة خرساء لأنهما لم تستطيعا تحطيم حاجز الصمت ، وانقطع ما بينهما وبين الكبار انقطاعا تاما ، ولم يستطع أحد الدنو منهما لأن منافذ روحيهما قد أغلقت وربما امتد ذلك بضع سنوات قادمة ، وكانتا فى حرب مع كل ما كان حولهما لأنهما فى يوم وجيز كبرتا وشبتا

وفى أعقاب المساء عندما كانتا تنفردان فى حجرة النوم كان يعاودهما خوف الأطفال من العزلة ، ويغشاهما الفزع من المرأة الميتة ، وتلم بهما رهبة المحتملات المرعبة ، وكان البرد شديدا قارسا وقد أذهلهما الاضطراب الذى شغل المنزل عن جهاز التدفئة ، فلاذتا بفراش واحد وتضامتا لتتبادلا التشجيع وتستشعرا الدفء ، وكانتا لا تزالان عاجزتين عن بحث

أسباب نعيمها ؛ ولكن أخيراً في تلك الآونة وجدت عاطفة الفتاة الصغيرة المكبوتة متنفساً في عاصفة من الدموع . والكبرى كذلك أخذتها نوبة من البكاء والنحيب ، وهكذا كانت كل واحدة منهما تبكي وتنشج وهي بين ذراعي الأخرى . ولم يكن بكاؤها على فقد الآنسة مين أو على الجفوة التي وقعت بينهما وبين والديهما ؛ فلقد هزهما توقع ما قد يصيبهما في هذه الدنيا المجهولة التي أبصرتا حقائقها لأول مرة في هذا اليوم ، وقد نفرتا من الحياة التي نشأتا في ظلالها ، تلك الحياة التي بدت لهما مثل غابة ملأى بالصور التي تبث الرعب وتثير الحذر ؛ ولابد لهما من عبور هذه الغابة ؛ ولكن هذا الشعور بالهم والحزن أخذ يستحيل شيئاً فشيئاً شعوراً وهمياً ؛ وقلت حدة بكائهما وأصبحتا لا تبكيان إلا في فترات متباعدة ، وهدأ تنفسهما ، وشملهما الهدوء والصفاء واستغرقتا في النوم

علي أدهم

مختارات من الأدب الفرنسي
شعر ونثر
للأستاذ أحمد حسن الزيات
مجموعة من أروع القصص القصير وأبلغ القصائد الشعرية اصطفيت من روائع كتاب فرنسا وشعرائها
وثمنه ٢٥ قرشاً عدا أجرة البريد

الطبيب الشاب

للكاتب الأنجليزي هـ . ج . بايلي

دخل مستر ريجنالد فورشن حجرة مدير البوليس في اسكتلنديارد ، وقال في هدوء « إنها حلوى من الشيكولاتة واللبن ، والأفضل أن تقبض على تلك العمة » وتناول المدير سماعة التليفون وتكلم في حدة ؛ ثم اتجه إلى فورشن قائلا « إنك تذكر تلك المسألة البغيضة مسألة العمة وبنت أخيها الطفلة » .

وتمتم فورشن قائلا « أوه تلك المرأة البدينة البيضاء التي لا يحبها أحد … إنها غير سليمة كما تعلم … إن في غددها الصماء بعض المرض »

وقال المدير عابسا في لهجة اقتناع « لقد دالت حزامها ، إنها امرأة شريرة يا مستر فورشن ، ماهرة أشد المهارة » . وتثاءب فورشن قائلا « نعم إنها جد فاسدة ، وقضيتها قضية كئيبة يا بل » .

ثم تنقل فورشن في أرجاء الحجرة حتى استقر عند منضدة فرأى عليها لفة من القطن الطبي وآلة لفتح الأقفال عنوة . فسأل المدير قائلا « ما هذه التحف يا بل ؟ » .

فأجاب المدير : « إنها الأدلة في قضية ذلك الطبيب الشاب ، قضية سرقة الماس في بلومسبري … أظنها لم تعد جديرة بأن تحفظ … لقد كانت قضية كريهة ؛ ولقد أسفت لهذا الفتى . على أنها كانت قضية واضحة لا صعوبة فيها . هل قرأتها يا سيدي؟ شاب يبدأ عمله ، ويجاهد في سبيله جهادا شاقا ، وفي أشد حالات عسره يتعرف إلى رجل يقتني بعض الجواهر في شقة فيسرقها ؛ وكانت سرقة هوجاء . وهكذا حال كل شاب مستقيم ينحرف عن الجادة . إنه يفقد صوابه ؛ وإن مغزى قضية الدكتور والتن هو تلك العبارة : يا لحمق شبابنا من الغواية . إنه لم يتجاوز الثلاثين من عمره وهو ماهر كيس ؛ وقد كان خليقا أن يسير في حياته سيرا موفقا . لقد قضى على نفسه . ولو أنه كان يملك مائة جنيه فقط لاستطاع أن يمضي قدما في سبيله »

فقال ريجنالد فورشن مرددا تلك العبارة المأثورة التي يحبها « إن كثيرا من الجرائم نتيجة طبيعية محتومة » ثم قال « إني لم أقرأها يا بل … كيف سارت القضية سيرها ؟ » وجلس وأشعل دخينة .

فقال المدير « كانت الخادمة في سحق

الصباح يا سيدى . ولم نسكن سوى أمر هين . لقد عاد الدكتور هوراس ولتن من الجيش ومعه قليل من المال ، وبدأ عمله متخصصا فى بعض الأمراض ، وكانت عيادته فى حجرة صغيرة خاصة ، كانت إحدى ثلاث حجرات أو أربع استأجرها آخرون فى شقة بشارع هانى ، وكان يقطن فى شقة بشارع بلومسبرى ؛ فماذا كان من أمره ؟ لم يأت إليه مرضى ، ولم يكن له أصدقاء وأخذ يقل ماله القليل » .

وأومأ بجنلدفورشن أو (رجى) كما كان يدعى قائلا : « ياله من مسكين » واستأنف المدير حديثه قائلا :

وحدث أن جاء تاجر ماس هولندى يدعى وت فسكن فى شقة تجاه شقة ولتن ؛ وقد عرفه ولتن إذ وصف له دواء للبرد أو غيره ، وأقبل وت على الطبيب وصادقه ، واستمع إلى متاعبه ، وعرض عليه أن يجد له عملا فى شركة هولندية ، وأهدى إليه قطعتين أو ثلاثة من الماس ، وهى طريقة كيسة لمنحه بعض المال كما أظن .

وحدث بعد ذلك ذات صباح أن دخل خادم الشقق حجرات وت فوجده فى سبات عميق ؛ فلقد أنشق الكلوروفورم ثم وجدت هذه اللفة على مخدته » .

وتناول رجى الصندوق الذى كان يحتوى على آلة فتح الأقفال ولفة القطن الطبى .

فقال مدير البوليس « لا تهزء ... أترى بقايا الطباق هذه ؟ إنها ذات أهمية . لقد فتح الدرج الذى كان يضع فيه وت ماساته عنوة واختفت منه الماسات . واستدعى وت البوليس ، والآن هل ترى هذا الدخان على لفة القطن ؟ لقد استرعى اهتمام مفتش البوليس ، فإن هذه اللفة قد تناولتها حتما يد رجل يدخن هذا الدخان . وأكبر الظن أنه وضعها فى نفس الجيب الذى وضع فيه الطباق ... دليل نادر أليس كذلك ؟ وأطلع مفتشنا وت على ذلك ولشد ما ارتاع وت ؛ إنه دخان من جنوب أفريقيا كما ترى ، وإنه ليعلم أن ولتن يدخن هذا الطباق . وكان بعض منه متناثرا على أرض الحجرة كذلك »

وسأل رجى وهل أحضر ثم ذلك البعض المتناثر ؟ » .

فقال المدير : لا ... لست أظن أنه أحضر ، ولكن رجلنا رآه وهو مصدق . وحضر أثناء البحث أحد الصحفيين الهولنديين ، وكان قد عاد من إنجلترة ، وقرر أنه جاء لزيارة وت الليلة الماضية فى ساعة متأخرة ؛ ولكنه لم يستطع أن يسمعه أنه بالباب فأدهشه ذلك لأنه رأى أثناء صعوده السلم شخصا يخرج من حجرات وت ورآه يدخل شقة ولتن . وكان هذا كافيا لأن نستند إليه

البوليس فى تصرفه : فقبض على ولتن وفتشت شقته ، ووجدت الماسات وآلة الفتح مدسوسة فى حشية أحد المقاعد . وحوكم بالأمس ، ولم يدافع عن نفسه ولكنه أقسم أنه لا يدرى من هذا كله شيئا . وكانت الأدلة واضحة . وتقدموت ، وهو لابد رجل على جانب عظيم من الرأفة ، يحاول أن يخفف عنه بكل ما فى وسعه ، وتوسل إلى القاضى أن يترفق به . ولكن بوروديل العجوز قضى عليه بخمس سنوات ؛ وهو حكم صارم . على أن القضية فى ذاتها ستقضى على مستقبل الشاب ، ذلك المسكين ... قضية سيئة يا سيدى أليس كذلك ؟ ضرب من السرقة الهوجاء المنطوية على نكران الجميل . ولكنه كان يستطيع أن يعيش أمينا لو أنه كسب من عمله ما يقيم به أوده » .

ولم يجب مستر فورشن ؛ فلقد كان ينظر إلى آلة الأقفال . ثم إنه وضعها أمامه وأخرج منظارا مكبرا ورفع الصندوق نحو الضوء ونظر مقطبا فى لفة القطن .

فسأله بل قائلا : ماذا ؟ أى شىء تراه فى هذا ؟

فأجاب مستر فورشن وهو لا يزال يفحص لفة القطن قائلا « آلة الأقفال هذه ، لماذا كانت من صنع ألمانيا ؟ لماذا يستعمل الدكتور هوراس ولتن وهو من شارع هارلى بلومسبرى مفتاحا كهذا صنع فى سولنجن ؟ »

فقال بل « سيدى ، إنك لا تستطيع أن تعرف كيف يحصل المرء على أداة كهذه ، إنها تنتقل من يد إلى يد ، أليس كذلك ؟ »

وأجاب رجى « يد من ؟ ولماذا يقطع مفتشك المجرب أن هذا من دخان جنوب أفريقيا ؛ إن فيه مشابهة له ولكنه فى الواقع من ذلك النوع الفظيع الذى يبيعونه فى ألمانيا ويسمونه روخ ـ تباك » .

وأخذت الدهشة بل وقال « هذا عجيب يا سيدى ـ ألمانى أيضا ؟ »

فقال فورشن : إنك تستطيع أن تشترى بضاعة سولنجن خارج ألمانيا ، وكذلك الدخان الألمانى ، من هولندة مثلا .

فأجاب بل : لست أفهم ماذا تريد أن تذهب إليه يا سيدى .

فقال فورشن : أوه .. إنى أظن أن مسألة الطباق كانت خطأ ... وإنى أظن أنه لم يكن ثمة من داع لأن يذكر الطباق قط ، ولكن لسوء حظ الدكتور ولتن قد اتخذ منه مفتشك المحنك دليل إدانة ذلك المسكين وسبيل وصمه إياه .

وبدا على المدير عدم الارتياح وقال « نعم يا سيدى ، إن هذا ما لم نكن نحب أن يحدث ... ولكن القضية مع ذلك لا تدور على الدخان ، فهناك الرجل الذى أقسم أنه

البوليس فى تصرفه ؛ فقبض على ولتن وفتشت شقته ، ووجدت الملاسات وآلة الفتح مدسوسة فى حشية أحد المقاعد . وحوكم بالأمس ، ولم يدافع عن نفسه ولكنه أقسم أنه لا يدرى من هذا كله شيئا . وكانت الأدلة واضحة . وتقدموت ، وهو لابد رجل على جانب عظيم من الرأفة ، فحاول أن يخفف عنه بكل ما فى وسعه ، وتوسل إلى القاضى أن يترفق به . ولكن بورودين العجوز قضى عليه بخمس سنوات ؛ وهو حكم صارم . على أن القضية فى ذاتها ستقضى على مستقبل الشاب ، ذلك المسكين ... قضية سيئة يا سيدى أليس كذلك ؟ ضرب من السرقة الهوجاء المنطوية على نكران الجميل. ولكنه كان يستطيع أن يعيش أمينا لو أنه كسب من عمله ما يقيم به أوده » .

ولم يجب مستر فورشن ؛ فلقد كان ينظر إلى آلة الأقفال ، ثم إنه وضعها أمامه وأخرج منظارا مكبرا ورفع الصندوق نحو الضوء ونظر مقطبا فى لفة القطن .

فسأله بل قائلا: ماذا؟ أى شىء تراه فى هذا ؟

فأجاب مستر فورشن وهو لا يزال يفحص لفة القطن قائلا « آلة الأقفال هذه ، لماذا كانت من صنع ألمانيا ؟ لماذا يستعمل الدكتور هوراس ولتن وهو من شارع هارلى بلومسبرى مفتاحا كهذا صنع فى سولنجن ؟ »

فقال بل « سيدى ، إنك لا تستطيع أن تعرف كيف يحصل المرء على أداة كهذه . إنها تنتقل من يد إلى يد ، أليس كذلك ؟ »

وأجاب رجى « يد من ؟ ولماذا يقطع مفتشك المجرب أن هذا من دخان جنوب أفريقيا ؛ إن فيه مشابهة له ولكنه فى الواقع من ذلك النوع الفظيع الذى يبيعونه فى ألمانيا ويسمونه دوخ ـ تباك » .

وأخذت الدهشة بل وقال « هذا عجيب يا سيدى ـ ألمانى أيضا ؟ »

فقال فورشن : إنك تستطيع أن تشترى بضاعة سولنجن خارج ألمانيا ، وكذلك الدخان الألمانى ، من هولندة مثلا .

فأجاب بل : لست أفهم ماذا تريد أن تذهب إليه يا سيدى .

فقال فورشن: أوه.. إنى أظن أن مسألة الطباق كانت خطأ ... وإنى أظن أنه لم يكن ثمة من داع لأن يذكر الطباق قط ، ولكن لسوء حظ الدكتور ولتن قد أخذ منه مفتشك المحنك دليل إدانة ذلك المسكين وسبيل وصمه إياه .

وبدا على المدير عدم الارتياح وقال « نعم يا سيدى ، إن هذا ما لم نكن نحب أن يحدث ... ولكن القضية مع ذلك لا تدور على الدخان ، فهناك الرجل الذى أقسم أنه

حقا لكما على الجد ! »

وقال لومس فى حدة « إنها الآن تبدو ضربا من الجنون ... إنها كابوس الليل »

وأجاب رحى فى جد عابس « أجل ... أجل ... أكاد أقول إن ذلك هو ما يراه الدكتور ولتن . ومهما يكن من شئ فقولا ماذا دهيتم إليه ؟ »

فقال إدس « إنك على صواب فيما يتصل بالدخان ، حيرك الله . وكذلك فيما يتصل بالمفتاح فكلاهما من صنع ألمانيا فهلا أخبرتنى ماذا يعنى ذلك ؟ »

فأجاب رحى « إن سؤال صديق الوفر أجدر أن يوجه إلى السيد وت والسيد جيرار ، وإنك لترى أن هذا أشبه بحال ألبس فى أرض العجائب : الحكم أولا ثم التحقيق ! ثم لم تدرس القضية قبل أن تحققها ، وبذلك كنت تستطيع أن تناقش وت وجيرار وهما تحت يدك رهن التحقيق ؟ »

فأجاب لومس « لا يمكننا أن نسألهما الآن على كل حال فقد اختفيا ... غادر وت شقته يوم المحاكمة ، وغادر جيرار الفندق فى نفس الليلة ، وقيل كلاهما إنهما عائدان إلى أمستردام ، وهاهو ذا ما أفاد به البوليس الهولندى : لم تعهم رفيقتكم المؤرخة ٢٧ من هذا الشهر ؛ لا يعرف أحد بهذه الأوصاف فى أمستردام ، ولا يمكن أن ترصد الغادمين »

وأجاب رحى : حسن .. حسن .. قوة بوليسنا الذكية العاملة ... إن فى القضية ما يثلج . أليس كذلك يا لومس أيها الرجل القديم ؟ »

وألقت إدس فيه نظره ومسألة « ماذا تريد أن تقترحه بفورشن ؟ »

فقال فورشن « أريد أن أبين بطلان الأدلة بل فراغها فراغا مطلقا من أية قيمة »

وأومأ إدس قائلا : هذا مسلم به . إن هذه الأشياء جميعا غير مقنعة ؛ فالدخان من حيث أنه دليل إدانة هو فى صالح السجين ، وقد اختفى بعد المحاكمة أهم من تقدموا للشهادة ضده مما يحيط أمرهم بالشك ... على أنه بقى بعد ذلك تلك الحقيقة : ألا وهى وجود الماسات فى حجرة السجين

فتبسم رحى قائلا : أوه ... أجل وضعها هناك شخص ما

فقال رجل القانون : دعنا نسمع رأيك صريحا ، هل تعتقد أن هذه القضية التى ذهب ضحيتها الدكتور ولتن قد دبرها أولئك الذين اختفوا ؟

فقال فورشن : هذه هى الفروض الاحتياطية ، لأنه ما من شئ آخر يفسر الوقائع . لقد استعملت أشياء ألمانية وليس ما يصل بين ولتن وألمانيا ؛ وقد حضر تاجر الماس إلى حيث كان يقطن ولتن فعلا ،

ونلمس سبيل التعرف إليه ؛ وانبعث صديق التاجر فجأة وجاء فى اللحظة الدقيقة ليدلى ببرهان كان لابد منه ؛ وحين يطمئنان إلى أن ولتن قد أدخل السجن يختفيان ، ولا يبقى مما نعرفه عنهما إلا أنهما لبسا كما زعما أول الأمر ... لذلك فالافتراض الوحيد الذى يتفق مع هذا كله هو أن هذين أرادا أن يسجنا ولتن حيث هو الآن ... هل من اعتراض لديك على هذا يا إدس ؟

فقال إدس : إن هناك اعتراضا واحدا ، وهو أن نظريتك تفسر كل ما حدث ولكنها لا ترينا قط لماذا حدث أى شىء من هذا ، أعنى أنه تفسير يجعل القضية أكثر غموضا الآن منها فى أى وقت مضى . إننا نستطيع أن نفهم أن يسرق ولتن الماسات ولكن لا يستطيع أحد أن يفهم لم يريد أن يدخله هذان الرجلان أو أى امرىء غيرهما السجن

فقال فورشن : أوه ... ياصديقى هكذا تبلغ من القانون مبلغا عظيما . إن ما غاب عنك عنه لا يعد معرفة . إنك لا تدرى لماذا يراد أن يبعد ولتن من الميدان ، ولست أدرى أنا كذلك ؛ ولكن ...

فقال إدس فى تأكيد : ولم يدر ولتن كذلك . إنه لم يشك فى هؤلاء ؟ ولم يتبين من دفاعه أن له أعداء . إنه أنكر أى علم له بهذه السرقة ، ولقد أصر محاميه على أن اللص الحقيقى أخفى الماسات فى حجرته لأنه بوغت وخوف

فقال لومس : أجل .. إن ذلك رأى متهافت كما ترى ... أف لهؤلاء المحامين .. أف لهم يا إدس .. قوم ثقلاء

فأجاب إدس : إننا لا نهتم إلا بالبراهين

فقال فورشن : ولماذا لا تستعملونها إذن ؟ لقد كان ذلك الرجل وت متمتعا جدا فى ساحة المحكمة حين قال إنه بدافع الرأفة قد عرض على ذلك الطبيب الذى يتنكر الجميل عملا فى شركة المستعمرات الهولندية ؛ وهى على بعد كبير من إنجلترة كما تعرف يا إدس . ولم يشأ ولتن أن يقبل ذلك . وعلى ذلك كان لابد من إجراء آخر

ونظر إليه إدس مفكرا ثم قال : إنى أوافق على أن ثمة شيئا فى هذا ، ولكن لماذا ؟ إنا نعرف أحوال ولتن جميعا . لقد كان حتى الآن حسن السيرة ، فكان فى المستشفى وفى الجيش وفى عيادته الخاصة مستقيما موثوقا به ، فلماذا يوجد له أعداء لا يألون جهدا حتى يلقوا به بعيدا عن طريقهم ؟ إن رجلا فى عصابة من المجرمين أو فى جماعة من الثائرين خليق أن يجد أحيانا من يكيدون له ليعاقبوه أو ليتقوا أن يخونهم ، ولكن ذلك لا يمكن أن يكون حال ولتن ، فإن حياته واضحة عادية . إنه

قد يكون لهم أعداء شخصيون ولكنى لست أذكر مثلا لذلك غير هذه القضية

فأجابه لومس : أوه ... نعم هنالك مسألة بكار ، ولقد كنت أعتقد أبدا أن هذا هو الدافع إلى مقتل ...

وقاطعه إدمس قائلا : نعم ، كما تقول ولكن واتن لم يشترك فى مؤامرة كبدية ، وليس يعلم أن له أعداء

فقال رجى : كلا ... إنى أميل إلى القول بأن واتن لا يدرى ماذا يعلم . هب أنه وقع عن غير قصد على بعض الأدلة ضد وت أو بعض أصحاب وت ، فإنه لا يدرى ما فى ذلك من خطورة ولكنهم يدرون

فقال لومس : لقد قتل أناس فى ظروف كهذه ولم يعلموا لم قتلوا

فصاح إدمس : إن هذا ممكن لاريب ، ولكن هذه الأقوال تذهب هباء فليس ثمة ما نستند إليه

فقال رجى : لست أرى رأيك ... إنك كثير التواضع

وهز إدمس كتفيه قائلا : ربما كنت كذلك ، ولكنى لا أستطيع أن أوصى بمراجعة الحكم فى قضية واتن بناء على فروض

فصاح رجى قائلا : «سحقا للمراجعة . . إنى أريد أن يطلق سراحه »

فحملق فيه إدمس ثم قال محتجا : «ولكن هذا شئ خيالى»

فقال رجى «أريده حرا طليقا . . يا إلهى . . فكر فى هذا المسكين ! كيف يغدو فى عداد المجرمين لأن أولئك الأوشاب الصعاليك رأوا وجوده غير ملائم لهم . . إنك إذا خففت عنه الحكم فحسب فإنما تقترف إثما آخر ... إنه يريد منك أن ترد عليه حياته »

فتنهد إدمس قائلا : إنها قضية ... ، ولكن ماذا أستطيع أن أصنع ؟ إنى لا أستطيع أن أعيد إلى المسكين شخصيته . إننا حتى لو أطلقنا سراحه ستجده رجلا قد تحطم

فقال رجى فى رفق : يا زميلى العزيز ، هذا ما قلته ، وهنالك نقطة أخرى ، ماذا يدفع مستر وت حتى يهتم مثل هذا الاهتمام ؟ ذلك ما تمكننى أن أعرفه

فأجاب إدمس : ليس هذا من شأنى ، ولكنك لا تزال ترسل كلامك فى الهواء يا فورستر ، ماذا تريد أن أفعل ؟ يجب أن أفعل شيئا

فقال فورستر : هذا أمر مؤلم لكل رجل رحيم حيى . إنى أرثى لحالك وكذلك يفعل لومس أكثر منى . أليس كذلك يا لومس ؟ ولست واثقا من أنك تستطيع أن تصنع أى شئ فى هذا الأمر

ثم اضطجع مستر فورستر وراح يدخن

سيكاره ويفكر

وتكلم إدس قال : إنك يا فورشن خير من يعيننى

وقال لومس : الحقيقة التى أمامنا هى أن جميع الأدلة ضد ذلك الرجل قد ثبت بطلانها ويجب أن نواجهها . وخير أن تطلق سراحه يا إدس

وشهق إدس قائلا : لومس يا عزيزى ، لست حقا أستطيع أن أوافقك ؛ إن الدليل الوحيد الذى ثبت بطلانه هو الدخان ولم يكن جوهريا ؛ وتحيط الشك بالأدلة الأخرى ، ولكننا لا نستطيع القول بأنها باطلة ، ولقد أقنعت القاضي والمحلفين ؛ ولم تسبق سابقة فى حالة كهذه بتخفيض الحكم حتى يصبح كأنه لم يكن !

فقال لومس : لست أنظر فيما يعترضك من صعاب ؛ ولكنى أرمى بذلك إلى معرفة ماذا وراء (وت) من سر

وانبعث رجى من تفكيره وتدخينه قائلا : أخرج ولتن وضعه تحت المراقبة ، ثم انظر ماذا يفعل وت وشركاؤه . لا بأس : إنها إحدى الطرق ، ولكنها مقامرة

فأجاب إدس : « وهى كذلك خارجة عن الموضوع

فالتفت إليه رجى قائلا : ماعملك على وجه التحديد يا إدس ؟ هل لى أن أعرف ما هدف وجودك المبارك ؟ فتنبه إدس فى برود إلى أنه ليس ثمة من ضرورة تقضى بأن يفقد الإنسان صبره

ورد فورشن بقوله : كلا ... لست غاضبا ؛ وإنما أنت تحير عقلى الساذج . لقد ظننت أن عملك هو أن تتحقق من العدالة إذن فامض فى سبيلك

فأجاب إدس وقد احمر وجهه : هلا تكرمت فذكرت ماذا تقترح ؟

فأجاب فورشن : سوف تقول إن ذلك لم تسبق به سابقة . . لا بأس . دونك رأيى الضعيف : أخبر الدفاع بالدخان ، وقل إن ذلك يكفى سببا لأن ترفع القضية إلى محكمة الاستئناف . ثم أفض إلى الصحافة بأن هناك شكا حول إدانة الدكتور ولتن و ... واحتمالا بإعادة النظر فى القضية وكلاما آخر من هذا القبيل ، كلاما ظننا محاطا بالغموض ، مما يحمل الصحافة تنشط فى الحديث عن قضية ولتن . والتفت فورشن إلى لومس باسما وهو يقول « ألست تستطيع أن تدبر ذلك يا لومس ؟ » .

فأجاب لومس : لقد فعلنا مثل ذلك من قبل .

وصرخ إدس قائلا : يا إلهى ! إنى لا قبل لى بما يستدعى أية صلة بالصحافة .

فقال فورشن متهكما : بوركت ؛ اهتك

الرائعة ، سوف تدبر الأمر ، وليس يعنينا ماذا تقول الصحافة ما دامت ستثير ضجة حول الموضوع . إن ذلك سوف يميت ومن معه وسنرى ماذا يكون .

وبدت على إدس الحيرة والارتياع ثم قال في جد : أظن أنه من الجلي أن يخبر الدفاع بما كان حول الدخان حتى يمكن استئناف الحكم ، ولكني لا أستطيع أن أسوغ شيئا غير هذا بالضرورة .

فقال لومس مبتسما : هذا صحيح يازميلي العزيز ، ما من أحد يسوغ هذه الأشياء ، وما من أحد يفعلها ، إنما هي تحدث فحسب

وخلص الرجلان من إدس وقال رجي وكأنما يئن : وطني ... أوه ، ياوطني . مثل هذا النوع من الرجال يحكمونك !

***

بعد ذلك بيوم أو يومين في أحد أصباح أبريل ، كان مستر فورشن أمام سجن برنستون ، ودق الباب وهو يرتعد من البرد ؛ حتى إذا فتح له قصد مسرعا إلى محافظ السجن يطلب منه الإذن بأن يلقى الدكتور ولتن .

فقال المحافظ وهو يهز رأسه : لست أظن أنك ستفيد كثيراً من لقائه ، فقد فقد الرجل رشده فيما يبدو ، وإن كل رجل مثله كان يشغل مكانا طيبا خليق أن يصير إلى ما صار إليه إذا ما جيء به إلى هنا ، ولكن الدكتور ولتن مسرف في يأسه وتأله ، وحين أخبرناه أن في الأدلة نقصا ، وأنه يمكن استئناف القضية لم يبد أي اهتمام بذلك ، وبدا عليه مايبدو دائما من البلادة والحزن . وكل ما فاه به قوله : « وما فائدة ذلك ؟ لقد قضيتم علي » .

فتنهد رجي قائلا : يا له من مسكين تعس

فقال المحافظ وفي وجهه الشك : ربما كان كذلك ، فقد لا يستطيع المرء أن يحكم على خلق سجين من أيامه الأولى في السجن ، ولكني عرفت أشخاصاً طالما أظهروا لي أكثر مما يظهر هذا ، ما يجعلني أصدق أنهم أبرياء .

وأدخل الدكتور ولتن على الرجلين وكأنه بقية رجل في ملابس السجن . ونظر فورشن إلى وجهه الذابل الشاحب ومد إليه يده فلم يفطن إليها ، وقال فورشن : « اسمي فورشن وقد جئت من اسكتلنديارد . لقد اكتشفت ما حدث من خطأ في الدخان ، وقد جعلني ذلك أهتم بقضيتك كل الاهتمام ، ويقيني حسبما أشعر أننا لم نعرف وجه الحق فيها بعد ، وإذا أنت أعنتنا على معرفة ذلك فإن في ذلك عونا لك » .

فقال ولتن : لن يستطيع البوليس مساعدتي وإن أقول شيئا .

فقال فورشن : اسمع يا بنى العزيز ، إنى أعلم أن المسألة مكيدة خبيثة ، ولكن هناك كثيراً غير هذا يتطلب البحث ، فإذا أتحت لنا فرصة فربما استطعنا أن نجلو القضية كلها ، ونجعلك تقف ثانيا على قدميك ، وهذا ما جئت من أجله .

فضحك ولتن قائلا فى انشراح : كلا . شكراً لك .

وعاد فورشن يقول : فكر فى الأمر فقط . ... إنى لا أستطيع أن أحدث لك الآن صبرا . إنى أبحث عن الحقيقة ، وأنا فى جانبك . هل لك أعداء ؟ ذلك كل ما أريد معرفته . هل هناك من يهمه أن يحطمك ؟ أو من يريد أن يزيحك من الطريق ؟

فقال الطبيب الشاب : البوليس ليس غير

فأجاب رجى يمحو ذلك : أوه ... يا بنى العزيز ؟ هل حدث لك أى شىء لا يسرك قبل هذه التهمة ؟

فصاح ولتن وقد صعد الدم إلى وجهه الشاحب : ماذا ؟ ماذا تقول ؟ أوه ، هأنذا أرى . أنى مجرم قديم ، أليس كذلك ؟ خير لك أن تنظر فى سوابقى ، وتستطيع أن تخترعها ، هذا سهل جدا

فقال رجى فى نبرة حزينة : ماذا يفيدك هذا يا بنى العزيز ؟ إن البوليس لم يخترع هذه التهمة . إن صديقك مستروت هو الذى صنعها . أتعلم شيئا عن مستر وت ؟ هل خطر ببالك قط أنه أراد أن يزيحك من سبيله ، إما إلى المستعمرات الهولندية وإما إلى السجن ؟

فقال ولتن : ليس فى نفسى شىء ضد وت .

فتنهد فورشن قائلا : أوه ... يا صديقى العزيز وكيف جاءت الماسات إلى حجرتك ؟

فأجاب ولتن فى توحش : أجل ... كيف جاءت ؟ اسأل مفتش البوليس . اسأل مفتشكم الذى قال عن الدخان ما قال . أنت رجل بوليس وتعرف كيف تدبر هذه الأشياء

فقال رجى وهو يتنهد فى عمق : آه ليتنى أعرف . لو أنى عرفت ما كنت أنت هنا .

ولم يستطع فورشن أن يعود بشىء أكثر من هذا من مقابلته ولتن ، فخرج غضبان أسفا . ولما لقى لومس فى الصباح التالى لم يكن قد استرد هدوء نفسه . وكان لومس متطلعا إليه فى تحمس فقال : « أقبل فإنك الرجل الذى أطلب الساعة ، ماذا كان رأى السجين ؟ »

فهز رجى رأسه قائلا : لومس ! هل رأيتنى قط يداخلنى بعض الغرور بسبب ما لشخصى من أثر حسن فى النفوس ؟ شأنى فى ذلك شأن من يحس أن ليس فى الناس من يستعصى عليه ؟

فأجابه لومس : لم أر من سلوكك ما يسيء يافورشن ، ربما كان في غرورك شيء سيأتي قليل . وإنك معجب بنفسك أليست كذلك ؟

فقال رجي في فجأة من لا يريد أن يمزح : دعنا من هذا الهراء يالومس . إذا شعرت ثانية بما الشخصي من حسن الأثر في النفوس فاذكر اسم ولتن . لم أترك في نفسه أي أثر ، ورأيته عصبيا .

فقال لومس في جد : إنك تدهشني ... ألم تعد منه بشيء قط ؟

فتنهد رجي قائلا : كثير جدا ... كثير جدا . إنه كئيب ، متجهم ، غبي . هذا ما أصف به صاحبنا الدكتور ولتن ذلك المسكين . لقد راح يقول إن البوليس هو الذي دبر كل هذا ، وإن المفتش هو الذي وضع الماسات في حجرته . . . لقد فقد المسكين صوابه وأصبح كالطفل الذي يركل الكرسي الذي اعترض سبيله .

فقال لومس : لقد انتحر المفتش يافورشن ، لقد استدعيناه كما تعلم لنستوضحه ، فكان مضطربا متهيج الأعصاب ، ولما عاد إلى منزله قتل نفسه .

فحملق رجي في محدثه وأخذ يهمهم في مقعده من الدهشة . واستأنف محدثه قائلا : لم يكن ثمة شيء قبل هذا ضده ؟ وليس الآن إلا مسألة الدخان . ألا إنه فعل شيئا نكرا

فقال رجي : إذا كان الدخان سبب انتحاره ، فإن شعوره بوخز الضمير هو أقوى مما يكون عليه رجل البوليس . إنه ليس شيئا نكرا كما تقول . إنه جدير بالرثاء . يا إلهي إذا قتلنا أنفسنا بسبب أخطائنا فمن يبقى في البوليس ؟ لقد ذكر ولتن المسكين أن المفتش وضع الماسات في حجرته ، ولكن هذا ضرب من الهذيان .

فأجاب لومس : إن المسألة كلها هذيان ، فيما أنت ذا تخبط يافورشن . إنك تقول إن انتحار المفتش بسبب الخطأ هذيان ، وتقول بإشارتك إلى الماسات ورأى ولتن فيها إن افتراض سبب آخر لانتحاره هذيان .

وتمتم رجي قائلا : أيها المسكين ... أيها المسكين ... لم أتخبط يالومس وإنما أنا مغضب ، فإن ولتن غير مذنب ، ومفتشك غير مذنب . ومع ذلك فأحدهما في السجن والآخر قتل نفسه ، ونحن نسمي أنفسنا رجال بوليس ... أغلقت الحظيرة بعد أن سرق الحصان . هذا هو عملنا كما أظن ، ويا ليتنا أغلقنا الحظيرة حتى بعد أن سرق الحصان .

فقال لومس : لست مغضبا فحسب وإنما أنت مهتاج ، ماذا يمكن أن نفعل يا صديقي فورشن ؟

فسأل فورشن : ألم يظهر شيء عن وت ؟

فقال صاحبه : كلا . إلا إذا كانت له يد في انتحار المفتش

فسأل فورشن : وهل توقن أن المفتش انتحر ؟

فقال تومس : خير لك أن تذهب فترى الجثة فإن الدليل مقنع تماما .

فسأل فورشن : أليس في الصحف شيء ؟

فقال تومس : كلام كثير بالضرورة ، ولكني لا أنتظر أدلة من الصحف .

فقال رجي : إنك دائما لا تقدر الصحف حق قدرها يا تومس .

وذهب فورشن فرأى جثة المفتش في المشرحة ، ثم عاد وفي وجهه أمارات التفكير العميق

فسأله مدير البوليس بل ، وقد كان في توديعه : أأنت مقتنع ياسيدي ؟

فأجاب فورشن : مقتنع ؟ قل إني حنق ، فهذا ضحية أخرى للسيد وت وشركائه . ثم اتجه إلى تومس وقال إني ذاهب إلى منزلي لأنظر ماذا في الصحف .

وجلس مستر فورشن في بيته يقرأ الصحف وقد ذهبت مذاهب شتى في التعليق على القضية ، وأشارت معظمها إلى أن في الأمر سرا ، وكانت كلها إلا صحيفة واحدة تعطف على الدكتور ولتن .

كانت هذه الصحيفة المسماة (ديلي وتشمان) تعطف أول الأمر كزميلاتها على ولتن ، ثم انقلبت في اليوم الرابع تحمل عليه فراحت تحت عنوان : « فضيحة ولتن » فكتبت تحذر القراء مما يصطنع من عطف يقصد به أن يؤدي إلى الإفراج عن ولتن ، فهي حيلة من حيل السياسيين ورجال الثقافة الحديثة لحماية مجرم من العقاب ، وهي صورة جديدة للدعوة إلى سن قانون للأغنياء وآخر للفقراء ، وهي مؤامرة دنيئة يديرها أصدقاء مذنب لص ، ثم من ذوي المكانة ، وعلى الشعب أن يقف مجتمعاً في وجوههم ، إذا أراد ألا تروع البلاد كل ليلة بمثل هذه السرقة الشنيعة .

وذهب مستر فورشن ليتمشى في ناد يجتمع به عادة عدد من رجال الصحافة ، وأخذ يسأل صديقا له هناك عما إذا كان يعرف من كتب ذلك الكلام في صحيفة ديلي وتشمان . وتعجب الصديق من شدة اهتمام فورشن بهذا الأمر ، ولكن فورشن أظهر له أنه قد استوقفه انحراف الصحيفة عن وجهتها الأولى ليس غير ، فأراد أن يفهم سر ذلك .

وفي اليوم التالي حمل البريد إلى مستر فورشن رسالة قصيرة عليها توقيع س . و . يقول فيها مرسلها إن الذي كتب ذلك الكلام في تلك الصحيفة رجل يدعى كب ،

وإن به صـــــلة جديدة برجل حديث عهد بالنعمة فى المدينة يدعى كوبير .

وذهب فورشن إلى حى من أحياء التجارة فى المدينة فصادف صاحبا له من التجار يدعى توماس أوين ، فسأله هل تعرف رجلا اسمه كوبير ؟ فقال صاحبه إنه يعرف رجلا يحمل هذا الاسم يقول إنه يبيع جواهر وحليا من روسيا ، وهو نحيف يبدو عليه الـكبر ذو لحية قصيرة مدببة ، أنيق الملبس ، يتكلم الإنجليزية فى طلاقة ، ويقول إنه هولندى . . وأردف توماس قائلا : وتسـتطيع أن تراه بنفسك فإن له مكتبا هناك فى المبنى الجديد فى مودلين لين .

وكان مستر فورشن يجمع شتات فكره وهو فى طريقه إلى منزله ، وعجب إذ وجد كوبير الذى يحيط به الغموض يزعم أنه هولندى ، ووت الذى اختفى يزعم كذلك أنه هولندى ، وقال وت إنه تاجر حلى ، كما قال كوبير إنه كذلك تاجر حلى ! ولما بلغ المنزل كلم لومس فى التليفون يطلب إليه مراقبة جوليوس كوبير فى مودلن لين وأن ينط بذلك رجال مجربون يقظون .

وتم صوت لومس حتى فى التليفون عن الدهشة وهو يكرر قوله « كوبير ؟ كوبير ؟ » ثم قال : ما المناسبة وما العلاقة يافورشن ؟ قضية وتن ؟ هل دبت جوليوس كوبير ؟ ولـكنه من رجال السياسة ، إنه بولشفى »

وأحس رجى كذلك بشىء من الدهشة ولـكنه لم يبده وقال : بعض رجالك الذين عملوا من قبل فى أوساط إجرامية جريئة . أسرع إليها الشىء القديم .

وفى صباح اليوم التالى دق جرس التليفون فى بيت فورشن ، وكان المتكلم لومس وأخذ يقول : « أأنت فورشن ؟ مســتر فورشن العظيم ؟ إنى أتجه بقلبى نحوك ياريجنلد وإنى أحنى رأسى لك ... هلم إلينا هنا » .

ورحب به فى مقر البوليس صاحباه ، بل ولومس ، وبالغا فى السخرية منه فى مزاح عابث ، وقال لومس « إنك تبلغ الغاية بينا نكون فى أول خطوة » وأجابهما فورشن بقوله « كيف ... كيف ؟ خبرنى يالومس من كوبير هذا ؟

وقال لومس : حسبنا أنك أنت الذى تخبرنا عنه ... ولـكن واعجبا ماذا جعلك تجرى فى أثر كوبير هذا ؟

فأجاب فورشن : إنه يزعم أنه هولندى ، وكذلك يزعم وت ، وهو يبيع الحلى وكذلك يبيع الحلى وت ، ولقد ألقى فى روعى أنه هو الذى وجه صحيفة دبلى وتشن لتتبع باحثها كى يبقى وتن فى السجن

فقال لومس : إذا فسرت لنا ماذا يعنى ذلك فنت سكرى .

فأجاب فورشن فى هدوء : ليس فى ذلك معنى ... إنى أعرف ذلك ، إلى الجحيم بهذا كله .. ينبغى أن تفعلوا شيئاً لأنفسكم .. بروا وجودكم ... هلا أخبرتنى يا لومس من هو كوبر ؟

فأجاب لومس : قد وضعه قسم السياسة تحت المراقبة زمنا ... وقد كان يبيع حليا روسية ، وهم يعتقدون أنه بلشفى

وتمتم رجى قائلا : هذا لا يفيدنا شيئا .

فقال لومس : لا ... ألا ترى من ذلك ماقد يكون من علاقة بين وت والبلشفية ؟ ألا إنى أراك تصيد فى غير صيد يا فورشن معذرة فلم يعرف أحد من رجالنا كوبر ، ولكن واحدا منهم عرف وت ، وإن وت هذا يعمل فى مكتب كوبر ... هذا مدهش يا ريجلند . كيف فعلت ذلك ؟

فصاح رجى فورشن قائلا : وارأسى .. أوه ... وا رأسى ... كوبر وسيط بلشفى ، وهو يستخدم رجلا ليزيح ولتن من الطريق !! إنه جرم فظيع

فقال لومس : أجل ... إنها مسألة معقدة .. ليست من أقضيتك اليسيرة يا فورشن

وقال (بل) فى تهيب : إذا كان الدكتور ولتن على علم بمؤامرة من المؤامرات البلشفية يا فورشن ، فإن ذلك يحملهم يزيحونه من الطريق .

فقال فورشن وهو يهز رأسه : هذا ما يحدث فى قصص ... إن ولتن لا يدرى مدى بعيد هذا يجهل

فقال بل : ربما كان هو نفسه بلشفيا ولو قليلا يا فورشن

وضحك لومس قائلا : إن بل ذو موهبة فيما أرى للملهاة الدرامية

فأجاب فورشن : أجل ... أجل ... إن فى الحياة كثيرا من مواقف الملهاة الدرامية ، ولكنى على أى حال لا أتصور أن وت وكوبر وشركاءهما يلعبان الآن ... أحسب أنه لا بدلى من الذهاب إلى حيث يعملان » .

وأثبت فيه لومس نظره وهو يقول « أنت ؟ »

ونهض بل قائلا : أن تذهب وحدك فيما أحسب يا سيدى

فقال فورشن : حسن ... تعال معى لتحرسنى يا سيدى ... نعم إنى أريد أن أرى هؤلاء يا لومس . إن ولتن رجل طيب كما تعلم وأحب أن أرى المرضى أيضا

فأجاب لومس فى تردد : يمكنك أن تحاول ذلك يا فورشن ، ولكنك تعلم أنه ليس هناك على التحديد شىء ضد وت ، وليس هناك مطلقا شىء ضد كوبر ، ولست على يقين من أن كوبر لم تأخذه ريبة : إنه يختلف إلى النادى الأوانى وقد كان هناك ليلة الثلاثاء ، ولكن رجالنا لم يروه ليلة أمس

وقف مستر بل مدير البوليس لحظة أمام المبنى الجديد فى مودنلين وتلفت حوله ، وأشار إليه أحد رجاله هناك إشارة فهمها ، ثم دخل البناء ومعه فورشن ، وصعد إلى مكتب يوليوس كوبر .

ولقيتهما فتاة جريئة سليطة اللسان ، فقالت إن مستر كوبر لا يقابل أحداً إلا فى موعد يحدد وقاطعها بل قائلا :

« إنه سوف يقابلنى » ومد إليها يده ببطاقة فتناولتها وهى ترمقه فى شراسة ، ثم اختفت . وكانت فتاة أخرى تنظر إلى الرجلين من وراء زجاج الحاجز الخشبى القائم لدى الباب . وعادت الفتاة الأولى بعد لحظة قصيرة تقول فى جرأة « آسفة ليس مستر كوبر فى مكتبه وخير لكما أن تطلبا تحديد موعد »

فأجابها مستر بل : هذا لا ينفع ... ومن هنا ؟

فصاحت الفتاة « لا تزعجنى من فضلك » فأجابها بل فى خشونة وهدوء : إنك لا تحبين فيما أظن أن يحدث لك ما تكرهين . أفاهمة أنت ؟ ثم نظر إليها عابسا وقال : اذهبى فقولى إن بل مدير البوليس فى انتظار أن يدخل على مستر وت

فأجابت فى ثبات : ليس لدينا هنا من يدعى مستر وت . فصاح بها : إفعلى ما تؤمرين .

وذهبت فقامت لحظات طويلة ؛ وكانت تسمع غمغمة هنا وغمغمة هناك . ثم عادت وعلى وجهها اضطراب وتركتهما دون أن تتكلم ، وسارت فى ردهة فتبعها بل وفورشن ، واقتحما حجرة داخلية فوجدا رجلا يصفف شعره ، ومن أن رآهما حتى صاح بهما وقد احمر وجهه : هذا اقتحام يا صاحبى .

فصاح بل باسما : آه ... هاهو ذا صديقنا مستر وت »

فقال الرجل : لابد أن هناك غلطة ... إنك مخطىء ، ياسيدى . ما اسمك ياسيدى المدير ؟ أما أنا فاسمى سيجل

فقال بل : إذن لماذا سميت نفسك وت ؟

فأجاب الرجل : لست أدرى ماذا يعنى كلامك .

قال بل : لست أنسى الوجوه ... وأستطيع أن أعرفك أيما كنت ... أنت ذلك المستر وت الذى اتهم الدكتور هوارس ولتن ولقد حان الوقت ...

فعاد الرجل يقول : ماذا تعنى بذلك ياسيدى ؟

وتدخل فورشن فقال فى ابتسام وهدوء : آن أن تقول الحق ... وأن تفكر فى نفسك أليس كذلك ؟ لقد اطلعنا على أدلة اتهامك ولتن وهى زائفة . لماذا لفقتها يا مستر وت ؟

فسأل الرجل : ماذا تريد ؟

قال فورشن ... حسن ! أين صديقك مستر كوبر ... خير لك أن يكون معنا هنا

فأجاب الرجل : لقد سافر كوبير ياسيدى؛

فضحك فورشن قائلا : لست أظن ذلك ... وبك لتطير نفسك . أظن أنك لم ترد أن توقع ولتن فى الفخ فقل لى ماذا كان من أمر كوبير فى هذه الليلة ؟ :

وتلفت وت حوله فى حالة عصبية وقال : لا نستطيع أن نتكلم هنا فالفتاتان تسترقان السمع ، ولا بد أن أخرج معكم :

وما كاد يذهب وت لمرافقتهما حتى دفع باب الحجرة . وانطلقت رصاصتان من مسدس فأصابتا وت ، فانقلب على وجهه والدم يسيل منه ؛ واندفع بل صوب الردهة ومسدسه فى يده ، وأكب رجى على الجريح يسأله فقال لاهثا « كوبير ... كوبير »

فقال فورشن : أعرف ذلك .. وسنقبض عليه ... أتعلم أين ذهب ؟

فقال وت فى همس : إلى يخته ... إلى يخته فى جريمسبى وقد أعده هناك . ثم أن الرجل والتى فقد أصيب فى كتفه وبطنه

وذهب رجى إلى التليفون وبينما كان يطلب نقالة لنقل الجريح إذ دخل الحجرة بل منقطع الأنفاس ، يتبعه عدد من رجال البوليس فى ملابسهم الرسمية وقال : لقد هرب من ناحية بول كورت ، وإن أحد رجالنا هناك ، ولكنه لا يعلم بحدوث شئ سوف يتعقبه فقط . وأرجو ألا يفلت منه

فقد أفلت من رقابة رجالنا بالأمس

فقال فورشن : أبعد هؤلاء الفتيات وضع حارسا على الباب . إنى أريد أن أتحدث فى التليفون . وبينما كان رجال الإسعاف يحملون وت على نقالتهم ، كان فورشن لا يزال يتحدث فى التليفون وكان يقول : أمفهوم هذا ؟ حسن إذن

وركب فورشن وصاحبه بل فى سيارة إلى جريمسبى وقصدا إلى مخفر البوليس هناك ، وما أن بلغا باب المخفر حتى قال لهما شاويش كان فى انتظارهما أأنتما رجلا اسكتلنديارد؟ فأبرز له بل بطاقة تثبت ذلك ، فقال الشاويش : إن المأمور هناك على الشاطئ فى انتظاركما وسأصحبكما إليه

وأنبأهما المأمور عند الشاطئ أنه علم أن الرجل قد هرب فى يخته المسمى سيرلا وكان قد أعده من زمن ليهرب به عند الاقتضاء

وسأل فورشن : هل أعددت قاربا سريعا ندرك به سيرلا ؟

فأجاب المأمور : ها هو ذا القارب البخارى السريع

وركب فورشن وصاحبه فى القارب وحدث فورشن ربانه قائلا : إننا فى أثر سيرلا .. أتعرف هذا اليخت ؟ .. أريد أن تدركه وأكبر الظن أنه اتجه صوب شاطئ هولندة .. أسرع ما استطعت

وأخذ القارب يشق الماء في سرعة عظيمة وجلس بل وصاحبه تحت مظلته ، ووقف على مقربة منهما بعض الجنود تتدلى من أحزمتهم المسدسات وفي يدى اثنين منهما بندقيتان كبيرتان . ونظر بل فإذا الجو أكدر ، وكانت الرياح الشرقية تحيل سطح الماء إلى موجات تعلو وتهبط . وبعد دقائق أبصر بل وصاحبه على بعد نقطة سوداء ، وقال الربان إنها سيرلا . وما هي إلا لحظات حتى أخذ يراءى اليخت ، وأخذ الربان يزيد سرعة القارب وما زال يجد في أثر سيرلا حتى أصبح يرى بالعين المجردة . فنادى ربان القارب البوليسى في بوق يطلب إلى سيرلا أن يتوقف ، وأخذ يكرر الطلب مهددا حتى توقف سيرلا . ولما كان القارب البوليسى يدنو منه سمع صوت رصاصة ورؤى دخان ينبعث منه فقال : بل أكبر الظن أن الرجل أطلق الرصاص على نفسه

وبعد لحظة أصبح القارب البوليسى محاذيا لليخت الفارب . وخطا بل وصاحبه ومعهما رجال البوليس إلى ظهر سيرلا . وسأل بل ربانه : أين مستر كوبر ؟ فأجاب الرجل وهو يلعق شفتيه ولا يكاد يحدق فيه : ليس معنا من يدعى مستر كوبر ولا نعرف شيئا عن هذا الاسم . إن معنا مستر هوتن وهو هولندى وإن هذا القارب ملك له ، فسأله بل « أين هو » فقال الرجل « هنا في حجرة صغيرة وأظنه قتل نفسه » فقال بل « أحضره . أسرع » وأشار إلى بعض جنده فتبعوا الرجل إلى تلك الحجرة . وبعد لحظة ألقى على ظهر اليخت رجل ممدد ينزف الدم من جسده فنظر فورشن فإذا هو بعينه بوليوس كوبر كما وصفه التاجر توماس أوين « نحيف يبدو عليه الكبر ، ذو لحية قصيرة مدببة . أنيق الملبس »

وجثا رجى فورشن إلى جانبه وجس نبضه وتحسس موضع قلبه ، وكان الرجل يلفظ أنفاسه الأخيرة ، وصاح رجى قائلا : يا للعجب ! فسأله بل : ماذا تجد ؟ أما يفرغ لك عجب ؟

فقال فورشن : إن الرجل لا قلب له ! هذا شيء جد عجيب ! يا إلهى إن قلبه في جانبه الأيمن ! لقد أجريت له عملية في الغدة الدرقية .. ثم ابتسم فورشن ابتسامة الرضاء

فصاح بل : إذن فأنا أعرفه ولقد تذكرت الآن هيئته . إنه لوتن ياسيدى ! لوتن ذلك الشيطان المحتال . صاحب الاحتيال الكبير على المصرف الرئيسى . لقد اختلس خمسين ألف جنيه أو أكثر من ذلك . وقد حصل ذلك قبل عهدك في البوليس ، ولكن لعلك تذكر تلك القضية .. يا عجبا ! ماذا جاء به ثانية إلى هنا ؟ يا له من محتال جرىء ! »

وقال فورشن متعجبا : أهذا هو لوتن ؟ الآن سوف أعرف كل شيء

***

قال فورشن : يقص على لومس كيف عمل كوبير لوتن على الإيقاع بالطبيب الشاب حتى أدخله السجن « لقد واتفقنى ولتن على أن الشذوذ في وضع قلب كوبير لوتن هو أصل الشر كله »

فقاطعه لومس قائلا : أى صديقى العزيز ما لنا ولهذا .. دعنا من صحته ومرضه ..

فقال فورشن : صبرا يا صديقى .. قلت لك إن هذا الشذوذ في وضع قلبه هو أصل الشر نخذ الحديث على سرده ..

فنظر إليه لومس في دهشة وأصغى إليه في شوق فقال فورشن : وقع حادث لكوبير في أحد الميادين فقد صدمت إحدى السيارات سيارته ، واتفق أن كان ولتن المسكين على مقربة من الحادث فأسعفه وعالجه . ولكنه تملكته الدهشة حين وجد قلبه في الجهة اليمنى من صدره وعد ذلك أمرا يهمه كطبيب ، وكان قد عرف سائق كوبير فتردد على ذلك السائق يسأل عن سيده فأوجس كوبير خيفة فإن موضع قلبه في الجهة اليمنى هو العلامة التى لا تخطئ في الكشف عنه وهو لوتن المحتال القديم لابوليوس كوبير . وازدادت مخاوف لوتن حين علم أن ولتن صديق حميم لذلك المفتش المسكين الذى قتل نفسه . فأرصد لوتن وت وشريكه ذلك الصحفى الهولندى فدبرا تلك المؤامرة التى راح ضحيتها ولتن الطبيب التعس ومفتشنا البائس ، فلقد أرادا أن يجدا عملا لولتن خارج إنجلترة فلم يوافق الطبيب الشاب فما زالا به حتى أدخلاه السجن . وكان يخشى ذلك المفتش أن تؤثر صداقته للطبيب في عمله فأوحى إليه ضميره أن يهتم بجمع الأدلة ضده فكانت ورطته في مسألة الدخان ، ولما تبين له خطؤه الذى أوقعه فيه ضميره ، عاد ذلك الضمير فأوحى إليه أن ينتحر ! فأضيفت مأساته إلى مأساة الطبيب الشاب ! أرأيت كيف كان ذلك الشذوذ في وضع قلب لوتن هو أصل الشر كله ؟

ونظر لومس في وجه صاحبه لحظة ثم قال في نبرة حزينة : « لست أدرى ما إذا كان أصل الشر قلبه أم الشذوذ في وضع ذلك القلب ... لقد ذهب ضحيته رجلان ... صديقان .. وأجهد البوليس ما أجهد ، يضامن مأساة ويا له من شيطان ! ولكن خبرنى ما حال ذلك الطبيب بعد أن غادر السجن ؟

فقال فورشن وفى وجهه أمارات الأسى : أرجو أن يستعيد عما قريب ثقته بالحياة

« ذو الفقار »

فيما بعد الموت

للكاتب الروسي بوريس بوليفوى

بقلم الأستاذ فوزى شاهين

تلخص هذه الكلمات الأربع حياة الملازم فوجانوف : طفولته ومدرسته والكلية الحربية . أما الكلمة الرابعة فتحتاج إلى مجلدات ضخمة تنظم فيها الملاحم . كثيرا ما يحدث ألا تزيد الساعات الجديرة بالذكر فى حياة الإنسان الطويلة على ساعات ثلاث . ولما كنا نتحدث عن فوجانوف ، فالساعات الثلاث الأخيرة من حياته هى ساعاته الخالدة

أتيح لفوجانوف فى هذه الساعات أن يرقى إلى أسمى مراتب البطولة الإنسانية ، إذ لا حياة ولا موت ، وإذا لا مكان لغير الأبدية والخلود . فى هذه الساعات الأخيرة احترقت حياة فوجانوف ، ولكن الدبابات الألمانية لم تستطع تقدما

فتلك الفصيلة المرتدة عن الجبهة الأمامية المدفعية التى يترأسها فوجانوف ، وحلق فيهم الرجال تروعهم الدهشة وتهتز قلوبهم رعبا وحذرا ، وكأنما كانوا يرونها للمرة الأولى ! ومنذ تلك اللحظة أصبح فوجانوف ورجاله موضوعا للأغنية والأسطورة ، وصارت مدفعيتهم الشهالكة موضوعا للمتاحف والتاريخ ، وما كان الرجال وهم فيها هم فيه من هول يحسون بشئ من ذلك . .

كان الرجال يسيرون خلف عربة المدفع التى تحمل جثة قائدهم صامتين والأسى يلفهم برداته الأسود القاتم ، واستودعت الأرض بأطراف القرية جثة فيدور فوجانوف ، وبعد أن ألقيت كلمات الوداع وأطلقت آخر طلقة للتحية ، أسقط الكاتب من السجلات اسم الملازم فيدور فوجانوف ، ثم تابعت الفرقة سيرها لتستأنف حياة القتال الرتيبة

حديث واحد هو ذلك الحديث الذى كان يدور فى المساء سواء فى فرق المدفعية المنتشرة على طول الجبهة ، أو فى الخنادق المنتشرة هنا وهناك ، أو فى المحلة القريبة من جبهة القتال — الحديث عن بطولة فوجانوف وميتته الخالدة . انثالت الأسئلة على كل من حضر الوقعة ، وحاول كل أن يستعيد ما تستوعبه الذاكرة . وقال الذين لم يروا فوجانوف فى قيد الحياة : لقد عاش بيننا ذلك البطل ومع هذا تركنا الفرصة تفلت !

أما أولئك الذين عرفوه فقد أجهدوا

أذهانهم مسترجعين ذكريات لقائه، مستعيدين كلماته حرفا بحرف، سواء أكانت تمت إلى الموضوع أم كانت من عادى الكلام. وتحدث طباخه عن الطبق المفضل لديه ... وبالرغم من أن تلك الذكريات لم تذكر بطولة الفقيد، فقد كان الرجال حريصين استعادتها كما لو كانوا يجمعون كنزا ثمينا، راغبين فى رسم صورة كاملة للشهيد يطبعونها على صفحة ذاكرتهم، حتى إذا تقدم بهم العمر، وجدوا ما يقصونه عن البطل لأبنائهم وأحفادهم

هكذا بعث من جديد فيدور فوجانوف، وبدأ يحيا حياة أخرى، ولم يعد — كما كان فى حياته — ذلك الفتى الأشعث الشعر، وإنما بدا فى نظر رجال فرقته أنموذجا رائعا لما ينبغى أن يكون عليه البطل. وعثر البعض على بطاقته الشخصية وقد خضب دمه مكان الجبهة والكتفين من صورته، فأجمع الكل على أن تلك الصورة هى التى تشبهه تماما..

تأمل دور كهوف — أحد الكشافة — الصورة ملبا ثم استأذن فى استبقائها لديه تلك الليلة، وسهر الليل بطوله يرسم لوحة مكبرة لفوجانوف، ما كاد يتأملها زملاؤه فى الصباح حتى هللوا قائلين إنها تشبه الأصل كثيرا، إلا أن أحدهم اعترض على شكل الأنف، فقد كان أنف فوجانوف أفطس قليلا، ولكن الكشاف رد عليه قائلا:

— لقد عاش فوجانوف رجلا ومات بطلا. أفتريد منى أن أرسمه بأنف قبيح؟ كلا! ليكن كاملا فى كل شئ!

ونشرت الصورة فى الجريدة الإقليمية فقال كل من رآها: «الصورة الحية!» واحتفظ كل منهم بالعدد تذكارا

كان من بين مخلفات فوجانوف القليلة مسدسه، وهو مسدس عادى كسائر المسدسات التى يحملها زملاؤه. وبالرغم من أن مقبضه لم يكن من فضة أو يتميز بالحلى والنقوش، فقد اشتعل الجميع رغبة، كل يطالب بالمسدس ليحتفظ به للذكرى. كأن المسدس أصبح رمزا للمجد، فصاح القائد بغضب عندما انهالت عليه الطلبات:

ماذا دهاكم؟ أليس لكل منكم مسدسه؟

وقرر القوميسير أن يكون مسدس فوجانوف من حق القائد الذى تولى مدفعيته أحسن بلاء. وهكذا تسابقت الفرق إلى الظفر بالمسدس الذى أوقفت رصاصاته زحف الألمان

أعيد تنظيم فرقة فوجانوف، وقبل بها بعض الجدد ممن لم يروا فوجانوف من قبل؛ ولكنهم منذ اللحظة الأولى سموا أنفسهم «الفوجانوفيين» لأن هذا هو اللقب الذى اختاره رجال الفرقة جميعا، ولم يغضب ذلك القائد الجديد، فقد كان المجد الخالد الذى أشيع لسلفه ينعكس عليه فيحيطه بهالة من نور، فامتلأ فخرا لوقوفه على رأس فرقة فوجانوف التى ذاع اسمها فى كل مكان

وبدأ الصحفيون يتقاطرون إلى المكان ، كلهم يطمع فى الحصول على نبأ جديد عن البطل الراحل ، وأخذوا يجمعون ما كان بالأمس نسيا منسيا ، فأصبح بين عشية وضحاها قصصا خالدا . وهكذا انتشرت أنباء حياة فيدور فوجانوف القصيرة التى تلخصها أربع كلمات ، وأنباء موته الذى يستحق أن تؤلف عنه المجلدات

طارت الأخبار إلى القرية الصغيرة بسيبريا حيث ولد فيدور فوجانوف ، وطالعت الأم القصة التى تمجد بطولة ابنها ؛ ولكن المقالة التى ملأت صفحة كاملة بما كانت تحمله من أسباب تبعث على الفخر ، لم تكن تحدثها إلا عن أمر واحد : لقد مات ولدها ! انفجرت الأم باكية وناقتها جارتها بين ذراعيها غير محاولة أن تخفف عنها أو تقدم لها العزاء ، وقالت ببساطة :

— إبكى ماطاب لك البكاء ياستيبانوفنا ! ينبغى أن تبكى ، ولكن من حقك أن تفخرى أيضا !

وقطع مدرس القرية الدرس فجأة وهو يقول بصوت مرتجف :

— أى أبنائى ! على نفس هذا المقعد جلس من قبل فيدور فوجانوف البطل الخالد

وتطلع الصغار جميعا إلى المقعد الذى كان يحتله البطل وقد توردت خدودهم نيها ، وظل المدرس فترة يرمق المقعد دون أن تستطيع عيناه تحولا أو يواتيه الصوت ليستأنف الدرس

وعندما اجتمع فلاحو القرية اتفقت كلمتهم على أن يطلق اسم البطل على القرية ، وأن يقام لفيدور فوجانوف تمثالا على حضرة الوادى . وسرعان ما وفد إلى القرية مثال سأل الأم أن تعيره ملامحها من رسوم ، فنحته كل ما عثرت عليه ، ومن بينه صورة لابنها عندما كان حدثا أشعث الشعر فى زى المدرسة ، وأخرى له وهو فى البزة العسكرية ؛ ولكن الصور لم ترض الفنان ، فإنه لم يأت إلى القرية لينحت تمثالا لطفل غر ، وإنما جاء لينحت تمثالا لمحارب ملأ صيته الأسماع

ونفذ الفنان الفكرة التى طافت برأسه كما تخيلها لفيدور . عينان واسعتان متفتحتان للحياة ، وجبهة عريضة تحدثك عن عزم وقوة ، وقامة مديدة تحارب صلب العود ، كما كان يصبح فوجانوف لو امتد به الأجل واكتمل نضوجه

كم أود لو أمتع ناظرى بذلك التمثال . إننى أحسد فوجانوف .. ترى كم تبقى لدى فى الحياة من سنوات ؟ أقدر لى أن أعيش ساعة .. شهرا .. عاما .. ثلاثين عاما ؟ لكن فيدور فوجانوف سيظل إلى الأبد حيا ، يشرف على قريته الخضراء ، نابضا بالحياة ، خالد الشباب ، وستستعيد الأجيال المقبلة قصة حياته القصيرة ، ومماته الخالدة ، وهم يتناقلونها جيلا بعد جيل .. هذا هو الخلود

فوزى شاهين

فكر في الحل

رواية شاب هادئ

سمع إفرت مور مساعد الصراف في إحدى الشركات الكبرى وهو ينتظر في غرفة خارجية بالطابق الثالث ، صوت سيارة تقف عند باب الشركة في الساعة الثانية إلا قليلا بعد منتصف الليل . وبعد لحظة دخل عليه مأمور البوليس حيث كان ينتظر . فقال مساعد الصراف في هدوء : « جئت متأخرا » فنظر إليه المأمور نظرة فاحصة ثم سأله ما الحادث ؟ فقال في أسف ولكن دون أن يبدو عليه أي اضطراب : « لقد جمعنا الليلة قدراً عظيما من المال ووضعت أوراق النقد في درج مكتبي هنا في غرفة داخلية لأعدها قبل أن أودعها الخزانة » ثم صحب المأمور إلى تلك الغرفة الداخلية وهو يقول : « وفي الساعة الواحدة والنصف سمعت وقع أقدام على السلم بأسفل البناء فبادرت بإطفاء نور الشقة إذ كنت وحدي في البناء كله ، وكان النور بحيث لا يرى من الشارع ولا من السلم .. وبعد لحظة أحسست بشخص يتسلل في جرأة وفي غير بحث أو حذر إلى هذه الغرفة على نور مصباح كهربائي صغير ، ونظرت فإذا نور المصباح على مكتبي وإذا به يخرج النقود في سرعة من الدرج ويدسها في حقيبة كانت معه وكان مقنعا وفي يده مسدس . وسمعت صوت سيارة قادمة ، فانتظرت حتى تقترب بحيث يغطي صوتها صوت قرص التليفون إذا أدرته . ثم أدرت القرص وطلبتكم في المخفر العام مستغيثا في همس . ولما لم يكن معي سلاح لم أستطع مقاومة ذلك اللص . وبعد أن نزل بدقيقتين أضأت الشقة

فقال المأمور أي رقم طلبت ؟

فأجاب الشاب في هدوء : الرقم العام للبوليس ٥١٢١٩ :

فسأله المأمور : ألم تغادر هذا المبنى طيلة هذه الليلة ؟

فأجاب الشاب : غادرته في الساعة الحادية عشرة إلى قهوة حيث أكلت شطيرة وشربت قدحا من الشاي ... وكان الصراف لا يزال هنا ومعه بعض الموظفين والخدم

فقال المأمور : ولم لم تتعش في مطعم ؟

فقال الشاب وما زال هادئا كل الهدوء : أحببت أن أعود مسرعا لأتم عملي ولكي يستطيع زملائي الانصراف :

فقال المأمور : ألبس قبعتك واصحبني إلى المخفر مقبوضا عليك :

لماذا ارتاب المأمور في كلام الشاب وقبض عليه ؟

الرواية : فكر في الحل ... الخ

تجد حل اللغز المنشور في الصفحة الماضية في ص ١٦ من هذا العدد